القسم الأول

قريش قبل الإسلام

دار الرشاد

ظهور قريش وأوّليّات تاريخها

مَـدخـَل

من مصاعبنا الكبيرة مع الأصول العربية التى نعتمد عليها فى إنشاء دراساتنا التاريخية أنها تقدم لك الكثير جداً مما لا تحتاجه ، والقليل جداً مما تحتاجه ، ومادتها فى ذاتها غنية ووافرة ، ولكن هذه المادة لا تعطيك إلا جانباً ضئيلاً من الإجابة على الأسئلة التى تبحث عن جواب لها ، لأن هذه الكتب لم تكتب على الحقيقة لنا بل لأبناء عصورها ، وإذا كان كل كتاب يعتبر إجابة على سؤال أو أسئلة ، فإن الأسئلة التى وُضِعت هذه الكتب للإجابة عليها ليست أسئلة عصرنا .

والمادة الكثيرة التى تحسبها أنت زائدة أو ذات غَنَاء قليل لك ، إنما هى فى الحقيقة مادة طيبة ونافعة وحافلة بالفوائد ، وفى استطاعة الباحث الدؤوب أن يعيد قراءتها مرة بعد أخرى ليظفر بطلبته ، وبعد الجهد الشديد والصبر الطويل تجد جواب بعض أسئلتك بين يديك أو تجد على الأقل بدايات هذه الأجوبة أو مفاتيحها ، وعلى أى حال فأنت مع مراجعك العربية فى غابة أو بستان ، فهنا كل الأشجار وعليك أن تبحث عما ينفعك منها ، وهنا معظم الزهور ، وعليك أن تبحث عما يروقك .

وعندما أحسست بالحاجة إلى جمع أكبر قدر من المعلومات عن قريش وأصولها وتركيبها وتاريخها كنت أحسب أن المادة عن كبرى القبائل العربية وأعظمها قدراً وأهمية فى تاريخ العرب على أطراف الأصابع ، ولكن بدايات البحث دلتنى على أن أمامى طريقاً أطول مما قدَّرت ، والأسئلة التى طرحها علىَّ الموضوع يبدو أنها لم تخطر على بال مؤلفى الحشد الكبير من الأصول التى كنت أتوقع الجنى الوافر الميسر منها ، والغابة بدت لى بلا نهاية ولا نور ، فلم أحس أننى وضعت قدمى على بداية الطريق إلا بعد جهد شديد .

وقد وجدت هذه البداية فى كتب المتأخرين زماناً دون السابقين ، ويبدو أن الأسئلة التى تدور فى أذهاننا اليوم قريبة مما كان يدور فى ذهن رجال مثل : أبى محمد على بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ، وأبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وأبى الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس الأندلسى المصرى المتوفى سنة ٦٧١هـ فى الغالب ، فهؤلاء والكثيرون من أمثالهم كانت لديهم الأصول كلها - ما وصل إلينا وما لم يصل - فكانوا فى سعة من المادة والوقت يبحثون ويختارون ، وابن حزم بالذات بعد أن أنفق من الجهد ما أنفق فى إنشاء كتاب « الفِصَل فى الملل والأهواء والنِّحَل » وعمد إلى تأليف كتاب « جمهرة أنساب العرب » كان قد جمع علماً واسعاً حقاً ، واتضحت الأمور فى ذهنه فيما يتصل بالسيرة النبوية وأنساب العرب على نحو مكن له من إنشاء كتبه الكثيرة التى جمع فيها ما أراد جمعه من كتب السيرة ، وما أراد البيان عنه من أنساب العرب ، وملاحظاته التاريخية الصغيرة التى يزين بها شجرات أنسابه تعطينا فى أحيان كثيرة جداً مفاتيح الإجابة على أسئلة كثيرة ، وبالمفاتيح تنفتح مغاليق الأبواب ويهون العسير ، ولولا هذا الكتاب العظيم وما يعطينا ابن حزم فى كتبه التاريخية الأخرى وخاصة كتاب « جوامع السيرة » لأنفقتُ فى هذا البحث أضعاف ما أنفقت .

والذى كتبه العرب عن قريش بحر بلا ساحل ، وما من كتاب عربى قديم أو نصف قديم أياً كان موضوعه إلا وفيه طرف عن قريش ، وليس ذلك بغريب فقريش - محور التاريخ العربى كله - وهى ذؤابة المجد العربى ومناطه ، والحشد المتهيل المتجمع لك من المعلومات بعد البحث الطويل هو فى الحقيقة ركام من قطع الفسيفساء عليك بعد ذلك أن تفحصها وتصنفها وتبوبها وتجمعها فى صورة لها شكل مفهوم ومعنى نافع ، ولا يستبعد بعد ذلك كله أن تتبين بعد العناء أن مساحات كبيرة من الصورة ظلت خلاء بلا رسم ، ولا بد من تركها على حالها لأن المنهج العلمى لا يأذن للمؤرخ فى أن يملأ الفراغات . والفراغات - أى النواحى التى تظل مجهولة من التاريخ الذى يُكتب - تكون فى الغالب دليلاً على أمانة المؤرخ وإحجامه عن اللجوء فى ملء الفراغات إلى الافتراضات وهباء الكلام الذى لا يُعتد به ولا غَنَاء فيه.

وفى محاولتنا لكتابة تاريخ لقريش تلقانا ظاهرة الفراغات هذه بصورة واضحة جداً

فيما يتعلق بأصل قريش وأوليات تاريخها ، لأننا هنا - فيما يتعلق بالأصول والأوليات - نتلمس طريقنا فى ليل التاريخ الذى تختفى فيه كل المعالم الصحيحة للطريق ، وتزيدنا حيرة معالم كثيرة وضعها وألقى عليها الضوء مؤلفون من الطراز الذى يصعب عليه أن يقول لا أدرى ، أو قُصّاص تغنوا للناس - وأصحاب السلطان خاصة - بما يشتهون ، ثم اندرجت قصصهم فى كتب التاريخ ، أو ناس كانت لهم أهواء سياسية وعصبية اصطنعوا لها ما يؤيدها من أحداث الماضى . وشيئاً فشيئاً نخرج من الظلام إلى منطقة ظل ، وعندما نقترب من أوان البعثة المحمدية نجد أنفسنا فى منطقة شبه ظل نبصر طريقنا فيها ، ولكن الرؤية تظل دائماً غير واضحة وغير كاملة، ولاضير فى هذا فإن المؤرخ يكتب على قدر ما تساعفه به أصوله التى يثق فيها ، ولا تثريب عليه إذا هو ترك النواحى على حالها دون اعتساف ما يملؤها ، فربما وجد مؤرخ لاحق مادة سليمة يكمل بها الصورة دون أن يضطر إلى إزالة ما وضعه غيره على غير أساس .

أوّليّات تاريخ العَرَب :

العَرَب البَائِدَة

ومن البداية نجد أنه لا بد لنا لكى نجد أول الخيط من أن ندخل غابة القبائل التى ظهرت قريش من بينها ، فقريش لم تكن شجرة مفردة فى برية وإنما كانت شجرة فى غابة من القبائل كباراً وصغاراً ، وهذه الغابة كانت كثيفة جداً فى العصر الذى بدأت قريش تتراءى لنا فيه فى فترة لا تبعد أكثر من قرنين قبل البعثة المحمدية ، وهى فترة الجاهلية الثانية ، أو ما يمكن أن نسميه قبل الهجرة ، فالقبائل كثيرة جداً تغطى سطح الجزيرة كله ومساحات واسعة من بلاد الشام وجنوب العراق وشبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية ، فلا يخف زحام الناس إلا فى مناطق الرمال السائلة التى لا ينبت فيها زرع لأن الرمال تبتلع كل قطرة ماء تسقط عليها من مثل صحارى النفود والصّمّان والربع الخالى الذى يسمى فى بعض أجزائه بالبحر الصافى ، لأن الصحراء عند العرب هى بحر الرمال ، ومواطن العمران فيها جزائر وهى لا تسمى واحات ،

لأن الواحات لا توجد إلا فى صحارى مصر ، لأن لفظ واح فى اللغة المصرية القديمة معناه الماء ، والبحر الصافى هو البحر الذى لا توجد فيه جزر .

وأصولنا تقدم لنا مادة وافرة عن القبائل العربية خلال عصر الجاهلية الثانية . وهذه المادة متفرقة فى معظم كتبنا القديمة ، فما فى العربية كتاب قبل العصر الحديث ليس فيه ذكر لقريش أو فائدة عنها ، ومن حسن الحظ أن جانباً عظيماً منها متشابه أو منقول بعضه عن بعض ولكن الخلافات بينها فيما يتصل ببدايات قريش قليلة مما يسهل المهمة أحياناً ويزيدها صعوبة فى أحيان أخرى . ونبدأ من البداية فنقول : إن كلّ مراجعنا متفقة على أن تاريخ العرب قبل الإسلام - باستثناء عرب اليمن - مر فى ثلاث مراحل أو طبقات : العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة - ولا خلاف بينها حول العرب البائدة ، ولكن التفريق بين العاربة والمستعربة - بحسب كلامهم - غير واضح ، فالعارب لغوياً هو المستعرب على وجه التقريب ، وقريش نشأت - فى قولهم - من المستعربة وهم العدنانيون الإسماعيليون .

ونلقى نظرة على رأى العرب القدامى فى هذا الموضوع فنقول : إن آراءهم مجتمعة على أن العرب البائدة هم أقدم من سكن وسط الجزيرة وشمالها ، وأنهم انقرضوا ، وبعضهم باد تماماً مثل عاد وثمود ، فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [النجم] ، ويُفهم من نص الآية على بعض التفاسير أن هناك عاداً ثانية هى بقية الأولى . وباستثناء ثمود يمكن القول بأن بقايا تخلفت عمَّن باد من العرب البائدة مثل عاد وطسم وجديس وأميم وقطورا وإرم والمؤتفكة وأهل الرَّس وأصحاب الأيكة ، وهذه البقايا القليلة اختلطت بالعرب العاربة وذابت فيهم .

وقد قرأنا فيما كشفت عنه أبحاث الجيولوجيين ممن نقبوا عن بقايا ما قبل التاريخ فى جزيرة العرب ، أن الجزيرة كانت عامرة بالزروع والنباتات والشجر والوحش وحيوان الصيد فى بدايات العصر الرابع من عصور عمر الأرض المعروف باسم الكواتيرنارى Quaternary وهو الذى جاء بعد أحقاب الجليد المعروفة باسم

البلايستوسين Pleistocene الذى جاء بعد العصر الثالث أو الترسيارى Tertiary . والبلايستوسين مصطلح علمى جيولوجى مركب من لفظين (Pleistos + Kainos) ومعناهما معاً الأحدث أى العصر الأحدث ، ويراد بذلك أحدث عصور عمر الأرض الطويل أو أقربها إلينا ، وقد دام نحو مليون سنة ، وقد تغطت فيه مساحات شاسعة من النصف الشمالى من كرة الأرض بالثلوج مرة بعد أخرى حتى نصف آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية ، فقد زحف الجليد من أماكنه الحالية فى القطبين الشمالى والجنوبى حتى غطى المساحات التى ذكرناها . فثقلت طبقاته فى بعض الأحيان حتى بلغ سمكها ثلاثين متراً ، وخفَّت طبقاته فى أحيان أخرى حتى ذابت الثلوج وأصبحت المساحات المذكورة غامرة بالماء العذب ، ولهذا يعرف البلايستوسين بالعصر الجليدى glacial epoch .

فأما الأحقاب التى ثقل فيها الجليد وجمد فتسمى بأحقاب الجليد glacial ages ، وأما التى خف فيها فتعرف باسم أحقاب الجليد البينية Interglacial ages ، وآخر هذه الأحقاب الثلجية البينية هى التى استمر ذوبان الجليد فيها ولم يعد إلى التجمد مرة أخرى ، وقد استمر ذوبان الثلوج خلال تلك الحقبة الأخيرة بضعة مئات من آلاف السنين ، ولم يكن الجليد فى عصر البلايستوسين ثابتاً ، بل كان يتحرك جنوباً فى نصف الكرة الشمالى على هيئة ثلاجات أو وديان ثلج Glaciers تتحرك فى بطء شديد، فصارت تلك الثلاجات سيولاً تنحدر إلى الجنوب أو قيعاناً هائلة الحجم مليئة بالماء .

أخذت هذه القيعان تصغر فى الحجم بعد انسحاب الجليد إلى الشمال شيئاً فشيئاً ، وخلَّفت وراءها بحيرات شاسعة الحجم كما نرى فى البحيرات الواسعة شمالى الولايات المتحدة وجنوب كندا وبحيرات شمال ووسط أوروبا ووسط آسيا ويدخل فيها بحر الخزر (قزوين) وبحر خوارزم (آرال) وبحيرة بيكال وقد مَلُح ماء بعض هذه البحيرات بالبخر وارتفعت نسب الأملاح فى الماء بل إن البحر الميِّت (بحيرة لوط أو البُحيرة المُنْتِنة) بقية بحيرة من تلك البحيرات المتخلفة عن عصر ذوبان الجليد ، وقد انغمرت كل بلاد أوروبا وآسيا بهذا الماء الذائب الذى سال وديناً وأنهاراً أو ظل

مكانه فى الوهاد ، وسالت منه أنهار ووديان أخرى غمرت جنوبى آسيا ومنه جزيرة العرب .

وكلما انقشع الماء وانحسر عن بقعة من الأرض نمت فيها النباتات وطلعت الأشجار وظهر الحيوان ، وبين هذا الحشد الكبير من الحيوان ظهرت لنا آثار الإنسان الذى لابد أن يكون قد عاش على الأرض من أحقاب سحيقة فى القِدَم ، وانسحب مع غيره من الحيوان والنبات إلى الجنوب ثم عاد إلى المواطن التى عمرت بالحياة بعد أن كانت خافية تحت الثلوج أو غامرة بالماء .

وقد دامت عصور انقشاع الماء عن بعض اليابس وازدهار الحياة بضع مئات الألوف من السنين حتى إذا كان ما بين ثلاثمائة ألف ومائتين وخمسين ألفاً من السنين من عصرنا الراهن هذا بدأنا نتعرف على معالم الأرض وملامحها وآثار الإنسان والنبات والحيوان والطير والأسماك والخلائق الأخرى التى نعرفها إلى اليوم .

وكانت تربة الأراضى التى انقشع عنها الماء شديدة الخصب لأن ركام الثلوج والأمواه خلَّفت عليها طباقاً من الطفل Clays والصلصال Silts والأملاح Salts ، ويؤرخ علماء طبقات الأرض والجيولوجيا لهذه الأحقاب بدراسة ما يعثرون عليه فيها من الكربون Carbon والكربون المشع Radio - carbons الذى يُعرف باسم كربون ١٣ وكلاهما أخشاب متفحمة ، ولهذا الكربون المشع وما يخرج منه من إيزوتوبات الكربون المشعة Radioisotopes of Carbon وما ينبعث منها فى الهواء من ثانى أوكسيد الكربون Carbon dioxide وقد جوَّد العلماء أساليب التأريخ بدراسة الكربون المشع حتى أصبحوا يؤرخون لقشرة الأرض والأحياء التى عاشت عليها وفى قشرتها خلال المائة ألف سنة الماضية ، وهذا هو أبعد تاريخ نستطيع أن نؤرخ فيه للحياة فى جزيرة العرب على وجه قريب من التأكيد .

ومن حسن الحظ أن نفراً من العلماء درسوا ما تيسر لهم دراسته من تاريخ تربة الجزيرة العربية خلال هذه المدة ، وقد تمت حفائرهم على السواحل وما قرب منها وفى أقصى الشمال والجنوب والشرق ، وجدير بالذكر أن أبا الريحان البيرونى تنبه إلى أن

مساحات شاسعة من شبه الجزيرة كانت غامرة بالماء ، وقد استنتج ذلك مما كان يصادفه فى تربة الجزيرة من أصداف وحفريات أحياء بحرية فى مواضع من الحجاز والطريق إليه .

ودون أن أخرج كثيراً عن السياق أقول : إن استخدام الكربون المشع فى التأريخ لطبقات الأرض يقوم على دراسة ما بقى من إشعاعه فيعرف بذلك قدر ما ضاع وتبدد ، وما داموا يعرفون سرعة تبدد الإشعاع فهم يعتمدون على هذا فى التأريخ ، وذلك أيضاً ينطبق على المعادن المشعة مثل اليورانيوم والأيونيوم والراديوم . وخلال أحقاب ثقل طبقات الجليد وخِفَّتها طوال عصر الجليد أو البلايستوسين هلك - حتى ندر - الكثير من صنوف الأحياء التى كانت تعيش فى تلك الأقاليم من حيوان الأرض ونباتها ، ومن بين ما هلك حتى ندر أو انسحب إلى الجنوب أمام طوفان الجليد ، الحصان والجمل .

فقبل عصر الجليد كان يعيش فى الجزيرة الحصان والجمل وبعض أصناف الوعول والثيران والأسود والزواحف ، قد نَدُرَت حتى اختفت حفائرها من طبقات الأرض فى جزيرة العرب والشمال الإفريقى إلى ما قبل ٢٥ ألف سنة ، لأن قرب الجليد وكثافة طبقاته وما كان يسيح منه وينحدر إلى الجنوب من الماء المثلوج بَرَد جو نصف الكرة الشمالى إلى درجة لم تستطع تلك الأحياء أن تعيش فيها ، فهلكت جماعاتها ولم يبق منها إلا ما اعتصم بما ارتفع من القمم حتى أفاد من الشمس وما انخفض وخفى من الوهاد ليعود مرة أخرى إلى الظهور والتكاثر عندما انقشع الماء وعاد دفء الأرض ، وهو عندما عاد إلى الظهور كان صغير الحجم دقيق العظم فأول ما عثرنا عليه من حفائر الجمال جنوبى العراق وشمالى اليمن كانت صغيرة الحجم فى حجم الجحش الصغير ، وينطبق هذا على الحصان الذى عاد إلى الظهور فى حجم الكبش الكبير فى صحراء جوبى شمال الصين ، وهناك كان موطن ذلك الحيوان الذى سيكون له ولاستئناسه أثر ثورى فى تاريخ البشر . أما الجمل فسنرى فيما يلى من هذا الحديث ما سيكون لاستئناسه من دور عظيم فى تاريخ الجزيرة العربية . وعاصر عودة ظهور الإبل والوعول والثيران على حفافى الجزيرة وكذلك الشياه والأعناز والوعول وبعض

الكواسر منها أسود أقرب إلى القطط البرية الكبار نشأ عنها الأسد الآسيوى وهو الغضنفر أو الرئبال الذى أدركه الشعر العربى وأورد ذكره .

ولم ينته عصر الجليد أو البلايستوسين دفعة واحدة ، بل إن الجليد توقف عن الذوبان وعاد إلى الثبات على جَمْده ، ثم سال وجَمد مرة بعد أخرى خلال مائتين أو ثلاثمائة ألف من السنين ، لأن الأحوال المناخية فى جو الأرض لم تستقر إلا بعد زمن طويل ، وكان باطن الأرض يتفجر بالبراكين فى كل مكان ، فما كانت البراكين تخمد ولا سطح الأرض يستقر ، والزلازل والهزات الأرضية لا تتوقف ، فهى إذا قرَّت فى مكان تحركت فى آخر ، وما كان من الممكن أن تستقر الأرض أو جوُّها على حال إذا كان هذا الغطاء الجليدى الثقيل يجثم على ما ذكرناه فى نصف الكرة الشمالى ، وقد أخذ وقتاً طويلاً جداً فى ذوبانه وانحساره إلى الشمال ، هذا كله كانت تصاحبه رعود وبروق وعواصف ثلجية وأعاصير ورياح عاتية ، وأعاصير دوارة Typhoons تدور وتنتقل من مكان لمكان ، وهذا كله كان يخرب ما عسى أن يكون قد نما من مظاهر الحياة على أى بقعة من الأرض تستقر فيها الأحوال زماناً .

وإذا كنا نتكلم عن أحقاب من عمر الأرض تطول مئات الألوف من السنين فإن فترات الاستقرار الطارئة هنا وهناك من الممكن أن تطول بضع ألوف من السنين ثم تعود القلقلة من جديد ، وخلال هذه الألوف من السنين من الاستقرار كانت تنشأ أجيال من المخلوقات من كل نوع ، وكلما بعدنا عن عصر الجليد طالت فترات الاستقرار واتصلت أجيال المخلوقات دون أن يمنع ذلك من عودة التجمد والقلقلة واشتداد هياج البراكين . وشيئاً فشيئاً تطول فترات الهدوء والاستقرار النسبى واتصال الحياة ، ولا يمنع ذلك من عودة التقلقل والاضطراب وهياج البراكين وانتشار الحرائق وموت الكثير من مظاهر الحياة .

ويقدر العلماء أن ذلك الحال القلق استمر إلى ما قبل ٥٥ ألف عام من أيامنا هذه ، وخلال العشرين أو الخمسة وعشرين ألف من السنين صاعدين مع الزمن نحو عصرنا هذا استقرت الأحوال فى وسط آسيا وجنوبها نسبياً فازدهرت الحياة واتصلت الأجيال قروناً متطاولة مع هبوب العواصف وثوران البراكين بين الحين والحين ، وقد

عانى وسط الجزيرة العرب وكل وسط وجنوب آسيا وشمال أفريقية من ذلك طويلاً ، وتحطمت الحياة مرة بعد أخرى ، ولكن الحياة كانت تعود إلى الإزهار بقوة كلما أتيحت لها الفرصة ، فالتربة بالغة الخصوبة والمياه وفيرة وحرارة الجو تميل إلى الاعتدال ، وإذا كانت البراكين والعواصف والسيول تقضى على الأحياء فهى كذلك تدفع الحياة فى كيان الأرض ، وتحمل بذور النبات وأصول الأشجار من مكان إلى مكان ، والبراكين بما تقذف من الحمم وتنشئ تربة بالغة الخصوبة ، وفى أيامنا هذه تثور بعض البراكين وتقذف الحمم ، فلا تكاد هذه تبرد حتى تنفجر الحياة من باطنها فى سنوات قلائل ، وقد شهدنا نحن ذلك بأنفسنا ورأيناه مُصوَّراً مرة بعد أخرى.

ولابد أن جماعات العرب البائدة عاشت فى وسط الجزيرة وشمالها خلال فترات من الاستقرار فيما بين خمسين وثلاثين ألف سنة من الآن ، ولابد أن طوفان نوح وقع خلال هذه الفترة ، فقضت المياه على الحياة وعادت بأمر الله ، ونوح عليه السلام قاد تجديد الخلق بما حمل معه فى الفُلْك . وبنوح بدأت رسالات السماء واتصلت إلى الخلق الجديد ، وتوالى ظهور الأنبياء بالبشارات والنُّذُر كما هو وارد فى القرآن الكريم ، وكلما اشتد عصيان قوم واستشرى كفرهم وفسادهم أبادهم الله أو أباد غالبهم بما رأينا من الزلازل والبراكين والصواعق والنيران والفيضانات ، وأطراف من أوصاف ذلك كله واردة - بأجلى بيان - فى القرآن ، فقوم نوح كذَّبوه وأسرفوا فى عصيانهم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) ﴾ [الأعراف] . وقوم عاد كذبوا أخاهم هوداً ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾ [الأعراف] . وثمود كذبوا رسالة نبيهم صالح وهددوه وأنذروه واشتدوا فى غيِّهم وعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾ [الأعراف] . وقوم لوط كذبوه وعصوه ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) ﴾ [الأعراف] . وأهل مَدين استكبروا ورفضوا ما قال لهم أخوهم شعيب ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) ﴾ [الأعراف] . وفى سورة الفرقان نقرأ ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ

تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (٤٠) ﴾ [الفرقان] .

وفى سورة ص : ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) ﴾ [ص] . وفى سورة فصلت نقرأ عن عاد وثمود : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) ﴾ [فصلت] .

وهكذا تتوارد الآيات مؤكدة ما انتهى إليه العلم بعد طول البحث والتحقيق، فمن الـمُجْمَع عليه بين العلماء أن هؤلاء الأقوام جميعاً كانوا يعيشون فى شمال الجزيرة العربية أو فى غربى نجد كما نرى فى حالة أهل الرَّس ، وكانت بين بعضهم قرون كثيرة كما رأينا من تعاقب الجليد والذوبان وازدهار الحياة ثم اندثارها خلال القرون التى أعقبت نهاية عصر البلايستوسين ، وهنا أمطار وسيول وصواعق ورياح وكلها من الظواهر الجوية فى تلك الأعصر ، ويكون العرب البائدة قد عاشوا فى شبه الجزيرة قبل خمسين ألف إلى ثلاثين ألف سنة ، ثم باد معظمهم بما رأينا وظل شمال الجزيرة ووسطها يباباً Wasteland لا يعمره إلا قليل من الناس والمخلوقات حتى دخلها العاربة .

العَرَب العَارِبَة ؛ الجَمَل :

ويمكن القول إن العرب العاربة دخلوا جزيرة العرب مع الجمل . والجمل كما قلنا حيوان قديم جداً توجد حفائره فى أواخر عصر البلايستوسين وكان يعيش فى الجزيرة وجنوب الشام حيواناً وحشياً ، ثم نَدَرت حفرياته حتى لم تعد توجد فى الشمال الإفريقى . أما فى الجزيرة العربية فلم نعثر له على حفريات إلا من عصر العرب البائدة أى : قبل قرابة الثلاثين ألف سنة ثم ندر حتى لم نعد نجد له حفريات إلا فى جنوب العراق وشمال اليمن ، وقبل خمس وعشرين ألف سنة على وجه التقريب استؤنس الجمل جنوبى العراق وتبين للناس ميزاته وخصائصه ، وقد كان يعيش هناك وحشياً

بعيداً عن العمران ، وهو بطبعه حيوان نَفُور شديد الخوف شديد الحياء فيما يتصل بمخاضه وحمله وولادته .

وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون فى «المقدمة» فى كلامه عن أجيال العرب ، وكلامه هنا عظيم القيمة بالنسبة لأسلوب حياة العرب فى العصور التى نحن بصددها وإن كان هو لا يقصدها بالذات فى كلامه عن أجيال من أولئك البدو القدماء ظلت على حالها من الإيغال فى التوحش والبداوة إلى أيامه فى جزيرة العرب وبلاد المغرب . وسأورد كلامه وأقسمه إلى فقرات لكى نستطيع الإفادة منه بعد ذلك ، ونحن هنا مع قراءة جديدة لتاريخ العرب قبل الإسلام فيقتضى الأمر منا التوسع فى القراءة وإمعان النظر فيما نقرأ ، لعلنا بذلك نستطيع سَوْق الكلام مساقاً منطقياً متئداً نصل به إلى ما نريد من معرفة بدايات قريش وعالم العرب الذى ظهرت فيه.

قال ابن خلدون فى الفصل الثانى من الباب الثانى من «المقدمة» وعنوانه : فى «أن جيل العرب فى الخلقة طبيعى»:

١ - قد قدمنا فى الفصل قبلَه أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعى من الفلح والقيام على الأنعام ، وأنهم مقتصرون على الضرورى من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ، ومقصرون عما فوق ذلك من حاجىّ أو كمالىّ ، يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير مُنَجَّدة ، وإنما هو قصد الاستظلال والكِنّ ، لا ما وراءه . وقد يأوون إلى الغيران والكهوف .

٢ - أما أقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار . فمَن كان معاشه منهم فى الزراعة والقيام بالفَلح كان المقام به أَوْلَى من الظَّعن ، وهؤلاء سكان المدَر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم .

٣ - ومن كان معاشُه فى السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظُعُن فى الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم، فالتقلب فى الأرض أصلح بهم ، ويسمون شاوِيَّة ، ومعناه: القائمون على الشاء والبقر ، ولا يُبْعِدُونَ فى القفرِ لفقدان المسارح الطيبة ، وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة .

٤ - وأما من كان معاشهم فى الإبل فهم أكثر ظَعناً وأبعد فى القفر مجالاً ، لأن مسارح التُّلول ونباتها وشجرها لا تستغنى بها الإبل فى قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفر وورود مياهه المِلْحَةِ والتقلب فصلَ الشتاء فى نواحيه فراراً من أذى البرد إلى دفء هوائه وطلباً لماخِضِ النتاج فى رماله ، إذ الإبل أصعب الحيوان فِصالاً ومخاضاً وأحوجها فى ذلك إلى الدفء ، فاضطروا إلى إبعاد النُّجعة . وربما ذادتهم الحامية عن التلول أيضاً [١]، فأوغلوا فى القفار نفرة عن الضَّعة منهم[٢] ، فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً ، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العُجم ، وهؤلاء هم العرب ، وفى معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والترك والتركمان بالمشرق إلا أن العرب أبعد نُجعة ، وأشد بداوة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط ، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشاء والبقر معها ، فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعى لابد منه فى العمران ، والله سبحانه وتعالى أعلم[٣].

وهذه الفقرة كلها عظيمة الأهمية بالنسبة لدراستنا كلها لا بالنسبة لهذه المرحلة منها فحسب ، لأن كل صور البداوة التى يصفها ابن خلدون هنا هى نفس صور الحياة العربية البدوية فى العصر الذى نتكلم عنه ، إذ أن البداوة ليست مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى كما قال ابن خلدون فى فقرات تالية لما نقلناه عنه هنا ، وإنما هى نوع من الحضارة مستقل بذاته . وهو نتيجة ظروف محددة من الحياة فى البيئة الصحراوية ، فبدو العرب الذين تخلفوا فى الجزيرة عن العرب البائدة لابد أنهم عاشوا فى مواطنهم فى الجزيرة على صورة أهل الفَلح والشاوية العرب الذين كانوا يعيشون على أطراف بلاد الحضارة والاستقرار فى بلاد العراق والشام ، ولابد أن هذا أيضاً كان أسلوب الحياة فى مواطن الماء فى الجزيرة .

فنحن نتكلم عن عصور كانت الجزيرة فيها غنية بمواطن العشب بل النبات والشجر وحيوان المرعى من الشاء والبقر قبل استئناس الجمل ، فكانت كل جماعة تعيش فى مواطنها حياة بدوية مقتصرة على الضرورى لحفظ الحياة كما قال ابن

---

(١) يريد أن حاميات الدول أى جنودها يذودون أولئك البدو عن الأراضى المزروعة الداخلة فى طاعتهم .

(٢) أى نفوراً من ضعة الخضوع لجنود الدول والأذى على أيديهم .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة دار الشعب بالقاهرة ص ١١١ (بدون تاريخ).

خلدون. وكانت تلك الجماعات تعيش حياة كاملة ، أى لا تعتمد على غيرها ، فهى فى مواطنها فى مواطن العشب فى الجزيرة قادرة على مواصلة حياتها مكتفية بالضرورى آمنة من العدوان لأنها قادرة على الدفع عن نفسها ، ثم إن جماعاتها كانت تعيش متباعدة بعضها عن بعض ، ولا مطمع لإحداها فى الأخرى ، فلا ثروة ولا إبل كثيرة تحمل الناس فى القفار ، ولا خيل يعتمدون عليها فى الغارة ، ولابد أن الذين عاشوا منهم قرب مواطن العمران كانوا يعيشون على النَّسق الذى وصفه ابن خلدون فيما يتعلق منهم بأهل الفلح القليل أو المرعى القريب .

ثم كان استئناس الجمل فأحدث انقلاباً شاملاً فى حياة الجماعات التى استأنسته على أطراف العراق والشام الجنوبية ، لأن الجمل حيوان فريد فى بابه متعدد الخصائص، فهو بحكم خوفه من غيره لقلة سلاحه الطبيعى الذى يُمكِّنه من الدفع عن نفسه يُبعِد فى القفر ولا يطمئن إلا فى الموطن الموحش الذى لا يستطيع الحياة فيه غيره ، فتعوّد الحياة على الحشائش والنباتات بما فى ذلك الشوك والصَّبار ، وآتاه الله القدرة على هضم ذلك ، فهو يأكل من ذلك ما يتيسر له على عجل ، ثم يمعن فى القفر حيث يجتره فى أمان ، وهو صبور على العطش قادر على الاستغناء عن الماء الأيام الطويلة بفضل ما ركَّبه الله فى خِلْقته من الخصائص ، وقدمه مهيأة للسير فى الرمال المسافات الطويلة ، لأنها تحولت إلى خُف لا يسوخ فى الرمال ، فالجمل إذا وجد الماء استطاع أن يشرب ما يقرب من ١٤٠ لتراً دفعة واحدة . وهذا الماء لا يستقر فى جوفه ماء زلالاً بل يتحول إلى مادة هلامية تُختزن فى جهاز خاص فى جسده من الأوعية والشراسيف ، وجسده يعيش على تلك المادة بعد ذلك شيئاً فشيئاً حتى إنه إذا شرب وارتوى استطاع أن يصبر دون ماء سبعة عشر يوماً ونصفاً متوالية .

والذين يتحدثون عن أن العرب كانوا إذا أرادوا عبور صحراء لا ماء فيها سقوا الإبل حتى ترتوى ثم ساروا بها ، فإذا احتاجوا إلى ماء ذبحوا منها حاجتهم وشربوا ما فى بطونها يتحدثون عن وهم لا عن واقع ، ونحن إذا ذبحنا الجمل وفتحنا بطنه لم نجد فيه من الماء إلا ما نجده فى بطن غيره من الحيوان . أما الماء الكثير الذى يشربه فيتحول كما قلنا ويستودع فى الجسد ، وخالد بن الوليد لم يَسُقْ الجمال التى عبر بها البيداء وصار

يذبح منها ويشرب هو ورجاله ، وإنما هو سار فى دروب يوجد الماء فيها على المراحل المعقولة ، وقد تتبع الباحثون هذه الدروب ووصفوها وأبطلوا تلك الأسطورة .

وقد تكوَّنت هذه الخصائص فى الجمل لأن تاريخه فى الخَلْق أشبه بالأسطورة فأصله البعيد فى أمريكا الجنوبية فى أعالى جبال الإنديز ، وهو من عائلة اللاما والالباكا ثم سار مع الجبال صاعداً حتى وصل إلى صحراوات أمريكا الشمالية وتبحبح فى صحراء الأريزونا ورمالها ، وهناك - وعلى مدى مئات الألوف من السنين تكوَّن له السنام والخُف وجهاز خزن الماء المتحول إلى مادة هلامية ، ثم عاود الرحالة حتى بلغ آلاسكا ومنها عبر مضيق بهرنج إلى كماتشكا ، ثم انحدر حتى صحراوات شمال الصين ، وهناك استقر وهدأ واكتمل تكوينه وانقسم إلى جمل ذى سنامين فى النواحى الباردة وجمل ذى سنام واحد . والأول غزير الشعر يسمى بالبختىbactrian نسبة إلى بكتريا ذات الجبال العالية ، والثانى هو جملنا المعروف dromedary ثم دخل الهند ومنها إلى فارس والعراق ، وعندما وصل إلى حافة الجزيرة العربية وجد طِلبته وهى الرمال التى يهرب إليها ويطمئن فيها ، وهناك استأنسه الإنسان وتبين فضائله .

والجمل كذلك يختزن الطعام دهناً فى سنامه ، فهو صبور على الطعام أيضاً ، فإذا حاجه الطعام اغتذى بما لا يقدر عليه غيره ، فقلَّتْ مئونته وأصبح رغم عظيم فوائده من أقل الحيوان كُلْفة وأكثره عطاء .

ثم إن الجمل يعطى الإنسان أضعاف ما يعطيه غيره ، فهو غزير اللبن تعطى اللبون منه قدر ما تعطيه البقرة الحلوب ، ولبنه دسم كثير الغذاء ، وأهل البادية يكتفون بشربة منه مع قليل من التمر فيكفيهم ذلك عامة اليوم .

ويعطى الجمل صوفاً وافراً يقدر بخمسة عشر إلى عشرين كيلو جراماً فى السنة ينفضه عن جسده نفضاً دون حاجة إلى جَزٍّ أو مع جَزٍّ قليل إذا حاج الأمر ، وهذا الصوف لين لطيف اللمس ، يُغزل ثم يُنسج فيكون منه نسيج صوف يصلح للبس وصنع الخيام والبُسُط ، فإذا كان لدى البيت البدوى عشرة من الإبل كان له منها نصف طعامه وعامة حاجته من بيوت الشعر ، وكل حاجته من الملبس وليس غريباً فى هذه الحالة أن يُسمَّى البدو بأهل الوَبَر ، والوبر هو صوف الإبل وغيرها .

فإذا احتاج البدوى إلى اللحم ذبح من الإبل وأكل ، وفى تفاصيل السيرة النبوية ما يفيد أن الجمل الواحد إذا ذُبح أعطى اللحم اللازم لمائة من الناس فى اليوم إلى جانب القليل من اللبن والتمر .

وإذن فالجمل فى ذاته ، بطبعه وخِلْقته وخصائصه - أسلوب حياة ، وهذا هو الذى اكتشفه الإنسان عندما استأنس الجمل فى الأرض المعشوشبة جنوب غربى العراق ، وعملية الاكتشاف والاستئناس هذه لابد قد استغرقت مئات السنين ، لأن الإنسان فى مثل هذه الحالات يعثر على حيوان صغير ضعيف لا يستطيع الهرب ، فيرقّ لحاله ويُعنى به وينشأ معه ويغلب أن يكون الذى يفعل ذلك امرأة ، فهى بطبعها تعطف على الحيوان الصغير كما تعطف على الطفل وتعتنى به وتغذوه حتى يكبر ثم تبدأ خصائصه فى الظهور، فإذا كانت أنثى درّتْ لبناً ، ثم يكتشف الناس وبر الجمل وفضائله ، ويبحثون عن حيوان آخر مثله ويربونه ليتم تكاثره ثم يصبح هذا الحيوان الكثير الفضائل جزءاً من حياة الناس شيئاً فشيئاً - ومع التكاثر - يزداد الاعتماد على الجمال ، ويتبين الإنسان أن هذه الحيوانات تستطيع الإيغال فى الصحراء ، ومن الممكن الدخول بها إلى موضع قفر ليس فيه إلا شىء من الماء قليل والعيش به وحده ، فإن الجمال ترعى الحشائش والنباتات الخشنة وتحيلها إلى لبن وصوف ولحم ، والإنسان يعيش على ذلك كله .

وعندما وصلت بعض الجماعات الإنسانية الصغيرة إلى ذلك أوغلت بجِمالها فى الصحراء ونزلت حيث لا يدركها أذى وعاشت مع جمالها وأعنازها وشائها ، وهكذا ينشأ طراز من الحياة جديد هو طراز البداوة الظاعنة المعتمدة على الجمل أساساً ، والتى تستكمل مطالب حياتها من قدر جانبى من النخيل والماعز والضأن . وهذا هو طراز الحياة الذى تحدث عنه ابن خلدون فى الفقرة الرابعة من الكلام الذى نقلناه عنه: طراز البداوة القائمة على الإبل أساساً ، وهى البداوة التى نشأت عنها أجيال العرب العاربة ، فإن الجماعات التى استأنست الجمل وعرفت خصائصه وأفادت منها وأوغلت فى القفر واستقرت فى بعض مواطن الماء القليل كانت طلائع العرب العاربة، فهم لم يكونوا جميعاً عرباً ، بل فيهم عرب وغير عرب ، وقد جمعتهم بعضهم

إلى بعض الإبل وأسلوب الحياة الذى ينشأ معها ومنها ، ودخلت الجزيرة التى كانت قفراً إلا من بقايا البائدة المتناثرين هنا وهناك فى الشمال ، وعندما تكتشف الجماعات الإنسانية شيئاً كهذا فإن العملية تسرع فى خطوها بعد طول بطء وينشأ منها طراز من الحياة جديد تتحدد معالمه وخصائصه مع الزمن.

كثرت الإبل إذن وزادت العناية بها ، وأخذت جماعات الناس تزحف إلى الجنوب داخلة الصحراء ، فقد تبينوا أن فيها مجالات واسعة للحياة اعتماداً على الإبل أساساً ثم على ما ينضاف إليها من أسباب الحياة بعد ذلك ، وإذا كانت الحياة فى الصحراء عسيرة قاسية فإن فيها ما يعوِّض الإنسان عن لين العيش ويُسره : فيها الأرض الواسعة دون مالك يتحكم فى الناس ، وفيها الفيافى الرحبة التى لاسلطان فيها لملك أو مستبد أو جامع ضرائب ، وفيها شعور الجماعة الصغيرة من الناس بعزتها وحريتها ، هنا - أى فى جزائر صغيرة تقوم على عيون ماء قليلة - تستطيع القبيلة المهاجرة أن تحط وتطلق إبلها وشياتها وأعنازها يتبعها راع أو غلام يتنقل وراءها ويحرسها ويوجهها ويعود بها آخر اليوم إلى منازل القبيلة .

فى أثناء ذلك ينعم رجال القبيلة بالجلوس فى الظل والسَّمَر وربما قول الشعر ، فالوقت واسع لا شغل ولا خطر من عدوان ولا حاجة للمال ، فالقبيلة تعيش على ما لديها ، وأما ما لا تملكه فهى فى غير حاجة إليه . أما النساء فيقضين وقتهن فى غزل الصوف ونسج القماش للملابس لبيوت الوبر أو الخيام ، وفى المساء يعود الرعاة بتلك الإبل الكريمة التى تعطى لبناً وافراً لذيذاً يُشرب دافئاً ساعة خروجه من الضرع أو بارداً إذا تُرِك إلى الليل. وشباب القبيلة طول النهار يتبارى فى المصارعة أو اللعب بالسيف ، وأسلوب الحياة الجديد يتسع نطاقه ويتكامل مع الزمن، ويزداد الناس علماً بشؤون الإبل من حمل ومخاض وولادة وتدفئة وحماية ورعاية ، بالولائد ، وهذه تطورات تأخذ كما قلنا مئات السنين ولكن أسلوب حياة البداوة أثبت أنه أسلوب مقبول وعملى ، والنظرية الأساسية التى يقوم عليها هى أن الإبل تعيش فى ظروف الحياة القاسية فى البرية ، تغتذى بالنبات القاسى مع القليل من الماء وتقطع المساحات البعيدة دون أن تشعر بكبير تعب .

وقد أثبتت الأبحاث اليوم أن الجمال أكثر الحيوان احتمالاً للألم الجسمانى ، فالإبل تحتمل مضغ الشوك والقتاد وأعواد النبات الجافية ، لا لأنها لا تشعر بالألم بل لأنها تحتمله والرحل الخشبى يوضع على سنامها ويشد بالجلد ويركب الرجل والجمل يتألم ولكنه يتحمل لأن غدته النخامية التى تقوم بين فصى المخ فى قاع الرأس Pituitary gland تفرز شيئاً يساعد على احتمال الألم ، فالإجهاد يبلغ بالجمل أشد مبلغ ومع ذلك فهو يحتمل ويواصل السير ، وخُفُّه تتعاوره الصخور وتدميه وهو يسير ، ويدركه النوم وهو سائر بحمله يغفو وهو يسير، فإذا حط شرب الماء الأجاج ومَدَّ رأسه على الرمل وأخذ يجتر طعامه ونام ملء عينيه.

فإذا نحن فكرنا فى الإبل وخصائصها وأسلوب الحياة الذى تعيش به أدركنا بعضاً من مغازى قول الله تعالى فى سورة الغاشية : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية] . وأدركنا لماذا اختصها الله بالتساؤل فى هذه الآية الكريمة ، فإن خلقَ الله كله عجيب يدعو إلى التأمل وإطالة الفكرة ، ولكن الإبل بعد الذى بيناه من خصائصها من أعجب العجب ، فهى ليست مجرد حيوان بل هى أسلوب حياة كامل فى أقاليم شاسعة من أرض الله ، وهى الفيافى والقفار.

النّخـــلة :

وما دمنا قد تحدثنا عن الجمال فلنقل كلمات عن النخلة وهى تالية للجِمال فى الأهمية بالنسبة لساكن الصحراء . فنخلة التمر - وهى التى تهمنا هنا - تشبه الجمل فى خصائصها وعظيم منفعتها وقلة مؤونتها . والنخل فى عالم النبات كثير ، وفصائله كثيرة جداً يدخل فيها نخيل الجوز أو النارجيل ونخيل الموز ونخيل الزيت وكلها أشجار استوائية لا تعيش إلا بالماء الكثير . أما نخلة التمر فشجرة قديمة جداً ترجع حفائرها إلى مئات الألوف من السنين وربما ملايينها ، وقد مرت بتطور طويل حتى وصلت إلى صورتها المعروفة . والنخيل كله يتميز بساق طويلة منسرحة لا فروع لها ، وإنما هى تنطلق فى الهواء حتى إذا استوفت طولها نشأت الغصون تحمل الأوراق ، والأوراق رفيعة طويلة ولكنها قوية سطحها شمعى متين ، والنخلة على هذه الصورة

أجمل الأشجار التى خلقها الله ، فإن أغصانها تتفرع فى صورة هندسية زخرفية متوازنة ، وبين الفروع التى تسمى بالسعف وعن أصولها يكون الطلع وهو مخ النخلة والجهاز الذى ينظم حياتها كلها ، وداخل هذا المخ يكون شراب لذيذ الطعم هو أشبه بالنخاع للنخلة .

ونخيل التمر متعدد الأنواع وأشكال التمور وأصنافها ، والتمور تخرج فى سبائط تتدلى تحت ثقل ما تحمل من البلح ، والبلح مرحلة من مراحل نمو الثمرة . ومهما اختلفت أنواع التمور وأشكالها فهى متشابهة بالنسبة لخصائصها البيولوجية ، ففيها نسبة عالية جداً من السكر ومعادن نافعة للجسد منها الكلسيوم والبوتاسيوم ، ولحم التمرة غنى بالبروتينات. وقد قدَّر الباحثون أن الإنسان يستطيع أن يحصل على معظم حاجته من الغذاء من ٤٠٠ جرام من التمر . والنخلة الكاملة النمو تعطى نحو طن من التمر ، والتمر يبدأ أخضر طرياً ثم يحمر أو يصفر حتى يسود أو يأخذ لوناً يشبه لون العسل الداكن، وهو إذا تُرِك على أمه جف نصف جفاف وبقى بعد ذلك طرياً بفضل ما يتبقى فيه من الماء ، وتفرز النخلة سائلاً شمعياً لا يلبث أن يتجمد ، وهو قشر الثمرة وغطاؤها . وقد تعود العربى أن يحمل معه قدراً من التمر ويعيش عليه أياماً على المعدل الذى ذكرناه . ولذلك قيل فى مأثور حديث العرب أن البدوى يعيش على الأسودين : التمر والماء . فأما الأسود الأول فهو التمر الذى يسود لونه عندما يطول مكثه ، ولكنه لا يتلف أو يفقد طاقته الغذائية إلا بعد عام من قطافه .

ونخلة التمر ذات جذر طويل يغوص فى الأرض باحثاً عن الماء إلى أعماق بعيدة ، وكما أن ساق النخلة منسرح طويل فكذلك جذورها ، وهى قادرة على الوصول إلى الماء بخاصية عجيبة ركَّبها الله فى خِلْقتها ، ولهذا فإن النخلة لا تُرْوى إلا وهى فسيل ، فإذا نمت وصَلُبَ عودها واخشوشب الساق تغطَّى بلحاء قاس صلب لا يستطيع أى حيوان أكله ، وحول اللحاء ينمو نسيج متين يحمى اللحاء . وتعيش النخلة ما بين ستين وثمانين سنة ثم تشيخ وتبدأ فى الموت ، ولكنها على طول حياتها تلد الولائد التى تطفر من الأرض قربها ، ولا تزال تنمو حتى إذا بلغت سن البلوغ فصلت عن الأم ونقلت إلى مكان قريب ، لأن النخلة الواحدة تحتاج إلى ثمانية أمتار مربعة مجالاً لحياتها.

فإذا تأملنا هذا كله فهمنا لماذا يقال إن النخلة هى ناقة الأشجار ، فهى صبور متينة شديدة الاحتمال تعيش على أقل الماء ، وهى تعطى رطَباً ثم تمراً جنياً فيه غذاء عظيم ، وكل ما فيها نافع ، فإن جريدها نصنع منه الأقفاص وأشياء أخرى وسعفها نصنع منه أدوات بيتية كثيرة وخشبها متين يصلح للبناء وعمل السقوف وأسافين البيوت. والعربى الذى يملك النخلات العشر يعد من المياسير. وكما أننا لا نستطيع تصور حياة عرب الصحراء بدون الجمل فإننا لا نستطيع تصورها بدون النخيل . ومن الإنسان والجمل والنخلة معاً تتكوَّن حياة كاملة ، فإذا أضيف إليها الحصان اجتمعت لنا عناصر حياة الصحراء بكل خصائصها ، وهى كما قلنا حياة كاملة وأسلوب معاش متكامل وطراز حضارة قائم بذاته .

البَدو والبَدَاوَة ؛ الجَمَل فى حَيَاةِ البَدو :

أما طراز الحياة الذى يقوم على الإبل فهو البدو والبداوة ، وهو طراز من الحياة كامل لا يحتاج إلى شىء من خارجه إلا ما لا يتيسر صنعه فى الصحراء مثل السلاح والآنية المعدنية أو الخشبية وأدوات ركوب الخيل ، وعندما تدخل الخيل حياة البدو تُدخل معها تطوراً حاسماً فى حياتهم ، وسنتكلم عن ذلك فى حينه من ذلك البحث .

فهذا الطراز من حياة البداوة طراز كامل يتصل أجيالاً بعد أجيال دون تطور يذكر لأن الحياة فى الصحراء لا تتطلب تطويراً ، فهى متكاملة بذاتها على النحو الذى ذكرناه ، ثم إنها من القسوة والشظف بحيث تستنفد جهد الإنسان كله ، فلا يستطيع ذهنه بعد ذلك إلا القعود والحديث والتفكير المطلق دون غاية محددة ، إنها هى الرمال الممتدة بلا نهاية والتلال والوهاد والصخور مختلفة الألوان والأشكال والسماء الزرقاء وهذه الإبل وما يلحق بها من صغار الأنعام ولا زيادة . وهذه الحياة تقوم أساساً على الإبل : هى تغتذى بنبات الصحراء القاسى ، والإنسان يعيش عليها ، ولهذا جعل آرنولد توينبى حضارة البداوة واحدة من الحضارات الموقوفة Arrested Civilisations ، مثلها فى ذلك حياة الإسكيمو فى صحارى الجليد والثلج وحياة البولينيزيين polynesians فى بحار شرق آسيا الشرقية والمحيط الهادى .

ولكى نقدم هنا وصفاً لإطار حياة البداوة هذه فى أجمل صورها نردد قول الله سبحانه وتعالى فى نفس سورة الغاشية ، ومن آلاء إعجاز القرآن أن هذه الآيات سابقة على آية الإبل فتكون هنا ذات وقع ومعنى حضارى عظيمين . وسبحان الله ! ما يتفكر الإنسان فى آى القرآن وإحكام مساقها إلا تبينت له منها آلاء وآلاء .والآيات تعطينا مقابلة بين حياة طائفة من الناس هم البدو فى الجنة فى صورة يلمسونها ويحسونها ، فهى قريبة جداً لأجمل ما فى أذهانهم من صور نعيم الحياة ، فيكون ذلك أدعى إلى تعميق إيمانهم ، وفى القرآن صور أخرى من نعيم الجنة قريبة الفهم والتصور لجماعات أخرى ، والقرآن روض المعانى وجامع الصور كلها ، وهو للناس كافة ، ففيه لكل عقل وفهم أبلغ الخطاب . قال الله تعالى :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية]

فكل ما فى هذه الآيات من جميل الصور ميسور للبدوى فى خبائه والقفر الذى يتأبد فيه ، ثم تجىء آية الإبل فى آخرها فتكون كالجواب المقنع على سؤال محير . ثم تكتمل الآيات بعد ذلك بصور من إطار الحياة البدوية المتكاملة هذه :

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية]

وإذن فقد أدى استئناس الجمل وكشف فضائله إلى دخول جماعات من الناس جديدة فى الجزيرة ، وقد بدأ الدخول بطيئاً ، ثم اتسع مداه ثم تدفق ، لأن الداخلين استكشفوا فى حياة الصحراء فضائل أخرى وميزات كبرى ، فهنا يعيشون أحراراً فى مسارح شاسعة بلا حدود ، وهنا الأرض طلقة فهى كلها أرض الله لا تباع ولا تشترى ، كل خيرها شىء من الحشائش وصغار الأشجار ترعاها الإبل والشياه والماعز . والإبل هنا تتكاثر دون خوف ، فالبيئة ملائمة لها ، والسباع التى تعيش فى الصحراء سباع صغار لا تخشاها الإبل كالذئاب والثعالب وبنات آوى مما يُطرد ويُذاد

بالكلاب ، وجزائر الصحراء فيها ماء يصل أحياناً إلى أن يكون عيوناً جارية أو وديااناً غنية بالماء . وإمكانيات الزرع موجودة ولكنها قليلة ، وهنا نجد صورة أخرى من البداوة هى التى يصفها ابن خلدون فى الفقرة الثانية من كلامه الذى أتينا به ، فهنا ظعن محدود ، أى : أن النازلين هنا بدو ظُعَّن أيضاً ولكنهم لا يبعدون فى القفر لأنهم مرتبطون بالقرية الصغيرة التى يأوون إليها آخر النهار ، فهى نصف بداوة أو نصف استقرار Semi - sedentary.

وهؤلاء الداخلون الجدد فى الجزيرة هم العرب العاربة فيما نرى ، فقد دخلوها كما قلنا قبل خمسة وعشرين ألف سنة على التقريب كما قلناه ، وهذا توقيت مقبول يتفق مع ما ذكرناه من تطور الأرض وما عليها فى هذا الجزء من العالم . وهذا هو الزمن الذى دلت الحفائر على أن الجمل عاد فظهر فيه وتكاثر فى شبه الجزيرة . والحركة كما قلنا كانت حركة تاريخية سارت ببطء كما كان كل شىء على الأرض يسير فيما يتعلق بالتطورات الجيولوجية الوئيدة والتغيرات المناخية ، ثم إن التغيرات الاجتماعية البشريه كانت كذلك بطيئة جداً .

وهذا الطراز الجديد من البداوة المرتبط بالإبل عندما عرف الناس كيف يتحملون مضانكه ويتمتعون بميزاته اتسع مداه وأصبح تياراً من الهجرة من جنوبى العراق وبلاد الشام إلى الجزيرة . والذين دخلوا الجزيرة على من كان فيها من العرب القلائل من بقايا البائدة لم يكونوا عرباً خُلَّصاً عندما دخلوا ، ولكنهم عَرُبوا مع الزمن ، وجاوروا بقايا البائدة حيث وجدوهم وصاهروهم واختلطوا بـهم ، وتغير طراز الحياة فى البدو على أيامهم ، وطال عهدهم بالجزيرة فكانوا عرباً عاربة.

وقد أورد اليعقوبى نصاً عظيم القيمة لنا وإن كان فيه خلط بشأن معظم الأخبار التى يرويها هو وأمثاله من مؤرخينا القدامى عن عرب الجاهلية فى عصورهم البعيدة وهم أهل الجاهلية الأولى وفيهم العرب العاربة . قال : «وانتمت قضاعة إلى مُلك حمير . وقضاعة - فيما يقال - وُلِد على فراش مَعَدّ ، وكان مَعَدّ أول من وضع رَحْلاً على جمل وناقة ، وأول من زَمَّها بالنِّسع »[1]. وسنعود إلى تحليل هذه الفقرة من تاريخ

(١) تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٢٣.

اليعقوبى مرة أخرى فيما بعد ، ولكن الذى يعنينا منها الآن هو قوله : أن قضاعة من أبناء معد ، وسنرى فيما بعد أن العكس ربما كان هو الصحيح، أى أن معد بن عدنان وعدنان نفسه من سلالة قضاعة ، وسنرى بعد قليل أن أسلم الآراء فى أمر قضاعة أنها من العرب العاربة الذين نحن بصدد الكلام عنهم ، والربط بين معد واستئناس الجمل هنا ربط بين هذا الاستئناس وقضاعة أى العرب العاربة على ما سنراه بعد قليل وفى هذا تأييد لما قلناه واسْتَنْتَجناه من أن دخول العرب العاربة شبه الجزيرة مرتبط باستئناس الجمل واستخدامه .

مشكلة قضَاعَة :

ولكى نوضح هذا بعض الشىء نقول : إن مشكلة قضاعة وحيرة النسَّابين فى نسبتها إلى عدنان أو قحطان ربما كانت دليلاً على صحة ما يقوله ابن حزم من أن قضاعة قوم من العرب منفردون بأنفسهم ، لا فى قحطان أو عدنان ، وإليك نص كلامه : « وأما قضاعة فمُخْتلف فيه ، فقوم يقولون هو قضاعة بن معد بن عدنان ، وقوم يقولون : هو قضاعة بن مالك بن حِمْير ، فالله أعلم » . ووجدنا فى كتب بطليموس وفى كتب العجم القديمة ذِكْرَ القضاعيين ونبذة عن أخبارهم وحروبهم ، فالله أعلم : أهُم أوائل قضاعة هذه وأسلافهم أم هم غيرهم ؟ وبلاد قضاعة متصلة بالشام وببلاد يونان والأمم التى بادت ممالكها بغلبة الروم عليها ، وببلاد بنى عدنان ، ولا تتصل ببلاد اليمن أصلاً ، إلا أن الذى يُقطع به ويَثْبُت ويُحَقَّق ويوقَن هو أنه ليس على ظهر الأرض أحد يَصِلُ نسبُه بصلة قاطعة ونَقلٍ ثابت إلى إسماعيل ولا إلى إسحاق عليهما السلام . نعنى ابنى إبراهيم خليل الله ﷺ - فكيف إلى نوح ؟ فكيف إلى آدم ؟ عليهما السلام - هذا ما لا مرية فيه[1] .

أما انتماء قضاعة إلى اليمن فمن الثابت أنه كان فى أيام معاوية بن أبى سفيان وسياسة بنى أمية : السفيانيين أولاً ثم المروانيين بعد ذلك غيرت نظام الكثير من القبائل العربية فى الشام ، وقضاعة ولخم وطىّء وكل القبائل التى نظن أنها تندرج تحت العرب العاربة من عرب الشام مسها هذا التغيير، فأُلحقت كلب بن وبرة (وهم

(١) ابن حزم ، الجمهرة ٨ - ٩ .

من قضاعة) باليمنيين، ودُوِّن منها فى الديوان ٢٠٠٠ مجند كل منهم يتقاضى ٢٠٠٠ درهم ، وهذا هو شَرَف العطاء أو أشرف العطاء وتزوج منهم معاوية وأنجبت له امرأته ميسون ابنه يزيد ، وأصبحت كلبٌ العمادَ الأقوى لمعاوية وآله وخاصة بعد أن كسبوا نصر مرج راهط . واستقر فى أذهان الناس أن كلب بن وبرة من اليمن ، وانسحب الحكم على قضاعة ، لأن بنى كلب بن وبرة كانوا من أكابر القضاعيين . وليس بين أيدينا أى دليل على نسبة قضاعة إلى اليمن إلا هذا ، ويدخل فى قضاعة مع كلب بن وبرة : جُهينة وَبِلِىّ وبهراء والقَيْن أو بالقَين وجَرْم وتَنوخ وخُشَين .

ولكن من المؤكد - كما رأينا عند ابن حزم - أن قضاعة قدماء فى بلاد الشام وأن مواطنهم الأولى كانت حول دومة الجندل ويمتدون إلى تبوك ووادى القرى . ودومة الجندل وتبوك مدينتان قديمتان جداً ، وهما فى الغالب من إنشاء القضاعيين وكذلك المواضع التى كانت عامرة ونرى آثارها باقية إلى اليوم فى وادى القرى . ومن المؤكد أن هذه المدن ليست من إنشاء قوم نعرفهم ، فهى أقدم من الأنباط ، فلم يبق إلا أنها من إنشاء أولئك العرب القضاعيين الذين نتحدث عنهم .

ومن الثابت أن قبيلتين من قبائل قضاعة كانتا فى بلاد الشام منذ زمن قديم يصعب تحديده ، الأولى كلب بن وَبَرة التى ذكرناها ، فاسمها وارد فى النصوص النبطية القديمة ، والثانية هى تنوخ وموطنها غرب العراق وجنوب غربه فى المنطقة التى قلنا إن الجمل استؤنس فيها ومن هنا بدأ زحف العرب العاربة إلى داخل الجزيرة ، وتكوَّن بعض بطون قضاعة من أولى القبائل الداخلة أى من أولى العاربة ، وهذا فى ذاته يحل لنا إشكال أوليات قضاعة ونسبتها ويعيننا على التعرف بعض الشىء على بعض قبائل العاربة ، وكُتَّاب العرب أنفسهم يقولون إن تنوخاً فرع من قضاعة - وإنها وُجدت فى مواطنها من زمن سحيق فى القديم . واسمها نفسه مستمد من التَّنَوَّخ وهو الاستقرار فى موضع فهى كانت مستقرة فى مواطنها فى بلاد الشام ، وفى مواطنها استؤنس الجمل، وكان الزحف إلى داخل الجزيرة .

ومن الثابت أن قضاعة وتنوخاً كانت فى مواطنها قبل أن تدخل عليها غَسّان ولخم وما إليها من القبائل التى يقال إنها يمنية أى هاجرت من اليمن ، ونحن نشك اليوم فى

كل ما يقال عن يمنية غسان ولخم وكندة والأوس والخزرج ، فليس لدينا دليل قاطع على الأصل اليمنى لهذه القبائل إلا أقوال النسابة وقدماء القُصَّاص . وجدير بالذكر أن العرب فى الجاهلية لم يعرفوا هذا الانقسام الكبير إلى مُضَر واليمن أو قيس وكلب ، واليمنية المحقَّقون عندنا هم السبئيّون ومن سبقهم من أصحاب الدول فى اليمن ، ثم كندة ثم حمير الأولى ، أما ما عدا ذلك فأقوال قصاص وتصنيفات نسابة ، والرأى عندنا أن العدنانية وهم سلائل العرب المسمَّوْن بالإسماعيلية وَجَدُوا فى الجزيرة على ما سنرى مجموعات من القبائل القديمة فظنوها يمنية لأنهم هم أنفسهم أتوا من الشمال ، والشام عند العرب القدامى معناه الشمال ، أما اليمن فمعناه الجنوب .

ولهذا قالوا : إن خثعم يمن ، والأوس والخزرج يمن ، والمعنى هنا أنهم كانوا فى الجزيرة قبل دخول الإسماعيلية وهم المستعربة ، وما دمنا نعرف أن القبائل التى نحن بصددها ليست من البائدة فهؤلاء هم العاربة ، أى العرب القدامى الذين كانوا هناك قبل المستعربة ، وجماعاتهم المعروفة لنا قليلة على أى حال ، أشهرها وأهمها قضاعة وتَنُوخ وطىّء وربما الأزد ، أما كِندة التى وُجِدت فى شمال الجزيرة فمن الثابت أنها يمنية وهى فرع من كِندة التى توجد مواطنها الأولى إلى غرب حضرموت .

وقد سبق أن قلنا : إن جماعات قبلية مثل قضاعة تكبر وتمتد أراضيها حتى تشمل مساحات واسعة ، ثم تنكمش بعد ذلك على ما رأيناه وما سنراه وتتفرق قطعاً ، وتبقى هذه القطع فى أماكن متباعدة وتظل تحمل اسم أمها الأول ، ومن هنا يقع الاختلاف والشك فى الأصول الجغرافية للقبائل ، ولكن المؤكد أن هذه القبائل التى نقول إنها من العاربة كانت بدواً جمَّالة، فتنوخ أهل جمال ، وربما كان أصل تسمية تنوخ أنها مناخ الجمال ، وقضاعة جمالة وكذلك طيىء وعلى أى حال فهذا فرض قائم على الاستنتاج فى البحث عن العرب العاربة .

فهم على الجملة عرب جمالة دخلوا الجزيرة مع الجمل ، وامتدوا فيها من مواطنهم فى الشام وجنوبى العراق ، وهناك اختلطوا ببقايا البائدة ، ونشأت عن ذلك جماعات قبلية كبيرة ، وهذه الجماعات عاشت فى شمال الجزيرة ووسطها فى عصور كان نبات المرعى فيه قليلاً لا تقدر على العيش عليه إلا الجمال والماعز وما إليها . ولما كانت

صادرة من بلاد استقرار أو نصف استقرار Semi- Sedentary فقد أقامت فى مواطنها مراكز عمران أصبحت مدناً صحراوية مثل دومة الجندل وتبوك وبعض مواضع وادى القرى .

وربما جاء القول بأن العمالقة يدخلون فى جملة العرب العاربة ، أو أنهم كانوا من بدو بادية الشام الذين عاشوا فيها منذ أزمان موغلة فى القدم ، أو من انحدر منهم إلى جزيرة العرب وأصبحوا فى الجزيرة عرباً عاربة لأن شمال جزيرة العرب كان يسمى فى القديم بلاد عربى ومنه جاءت تسمية العرب ، فهم سكان بلاد عربى . ولما كان تاريخ العمالقة فى بوادى الشام طويلاً فليس هناك ما يمنع من أن يكون الهكسوس الذين غزوا مصر فى أواخر عصر الدولة الوسطى منهم ، ولكنهم لم يكونوا ممن استأنس الجمل لأن المصريين القدماء لم يصفوا الهكسوس أو الرعاة بأنهم جمالة . ولا وجود لرسوم الجمال على الآثار المصرية . أما الذين تمكنوا من الإيغال فى جزيرة العرب من هؤلاء البدو فهم العرب العاربة على ما ذكرناه ، وهم على هذا الفرض أبناء عمومة العمالقة . وليس من الضرورى أن يكون زحف العاربة إلى داخل الجزيرة قد وقع فى نفس الوقت الذى تحرك فيه العمالقة إلى مصر ، فهذه شعوب ضخمة وأزمان متطاولة، ونحن نستكشف أمرها كما ينظر الإنسان إلى التلال والجبال البعيدة التى تتراءى فى الأفق ، ولا يمكن التمييز بين ما تقدم منها وما تأخر .

على أى حال ، فهذه مجرد محاولة لحل مشكلة العرب العاربة ، فعلى الرغم من أن كل مراجعنا تذكرهم إلا أن مرجعاً واحداً منها لا يذكر لنا قبيلة واحدة من قبائلهم ، ونحن عندما نقول إنهم دخلوا جزيرة العرب نتيجة لاستئناس الجمل والانتفاع به فإننا نحل فى نفس الوقت إشكالين لا إشكالاً واحداً : إشكال عودة الجمل إلى جزيرة العرب وإشكال العرب العاربة وأوجدنا شيئاً من الارتباط والتناسق بين نتائج الأبحاث الجيولوجية ونتائج استقراء نصوص أصولنا التى نعتمد عليها ، ومهما يكُنْ الرأى فيما قلنا فنحن قد فتحنا اتجاهاً جديداً من اتجاهات التفكير فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ولنُضِفْ إلى ذلك أننا ألقينا ضوءاً على حقيقة قضاعة ، وقضاعة ليست مشكلة صغيرة من مشاكل تاريخ العرب والإسلام .

ويكفى أن نُعيد هنا ما ذكرناه من قبيلة كلب بن وبرة وهى كبرى القبائل التى تُوصف بأنها يمنية منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان إنما هى قضاعية فى الأصل ، وما يصدق على كلب بن وبرة قد يصدق أيضاً على غيرها من القبائل التى تُوصف بأنها يمنية مثل غسان ولخم والأوس والخزرج وخزاعة ، وكل تلك القبائل التى لم يعرف النسابون أين يضعونها من شجرات الأنساب فألحقوها بقحطان بخيوط « هى أوهى من نسج العنكبوت » ، كما يقول ابن حزم ، وليس لدينا دليل واحد يُعتمد عليه على صلتها باليمن أو أصولها اليمنية .

والحكاية كلها فيما يبدو افتعلت من أيام معاوية بن أبى سفيان بعد ارتباطه الوثيق ببنى كلب بن وبرة وزواجه من ميسون ابنة بحدل الكلبى ثم ما كان من إنجاب ميسون ليزيد بن معاوية الذى صارت إليه الخلافة ، ووقوع الخلاف بين القيسية المضرية والكلبية التى وصفت بأنها يمنية بعد موت يزيد وتأييدها لمروان بن الحكم وإقامتها للبيت المروانى بعد انتصارها فى مرج راهط على الضحاك بن قيس الفهرى فى المحرم ٦٥ هـ . واتساع نطاق العداوة بعد ذلك بين العرب وقبل هذه الأحداث ما كان هناك وجود لخلاف واسع المدى بين شاميين ويمنيين ، أو كلب وقيس ، أو كلب ومضر ، أو قحطان وعدنان .

العَرب المستَعربة (الإسماعيلية) - الخَيل :

وقبل أن نتكلم عن العرب المستعربة نقول : إن هناك اتجاهاً عند نفر من أعلام مؤرخى العرب المحدثين إلى القول بأن العرب العاربة جميعاً قحطانيون أى أن الذين عمروا الجزيرة بعد خلاء الكثير من نواحيها بسبب الجفاف جاءوا من الجنوب ، ومن هنا فإنهم لا يكتفون بالقول بأن لخماً وغسان وخزاعة والأوس والخزرج يمنيون ، بل إن قضاعة وتنوخاً يمنيون عندهم ، وأصل هذا الرأى عند مؤرخى اليمن وخاصة الهمدانى فقد قال به فى كتابه الإكليل ، ولكن يضعف من رجاحة هذا الرأى ما تقوله بينات الأثريين الذين كشفوا عن حفريات الجمال - وتتبعوا توغلها فى الجزيرة من الشمال : من المنطقة التى كانت تسكنها تنوخ أولاً ثم من منازل قضاعة ، ويؤيد الأثريين فى هذا أن قضاعة نفسها لم تكن يمنية أصلاً ، بل شامية ولم تدرج ضمن اليمنيين إلا لأسباب سياسية فى العصر الأموى .

ولما كانت حفريات أهل الآثار قد دلت على أن الجمل استؤنس فى شمال اليمن كما استؤنس فى جنوب غربى العراق ، فهنا يمكن القول - دون محاولة للتوفيق بين الاتجاهين - إن جانباً من العاربة زحفوا من الجنوب ، ومن هذه القبائل كندة وخزاعة والأوس والخزرج ثم حمير فيما بعد ، وبعضها زحف من الشمال مثل تنوخ وقضاعة ، وبعض بطونها ، وعامة المضرية وهذه كلها تدخل فى العاربة وإن كانت قد أُلحقت فيما بعد بشجرات الأنساب العدنانية أو القحطانية ، ولكن الذى نتوقف فيه ولا نستطيع تأييده - لأننا نملك عليه بيّنة - هو القول بأن لخماً وغسان مثلاً أصولها يمنية ، فليس لدينا دليل واحد على ذلك إلا ما يقوله النسابة ، وما انبنى على أقوال النسابة من أشعار وأخبار كلها مختلق مفتعل .

والآن ننتقل إلى المستعربة ، فنجد أن تحديد الأمر أيسر لأن معلوماتنا عنهم أوفر وأوضح ، فغالبية مؤرخينا مجمعون على أن المستعربة هم الإسماعيلية وهم العدنانية ، وإن كان هناك خلاف فى مساق النسب من إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام إلى عدنان .

وعند كلامنا عن العرب المستعربة والإسماعيلية ينبغى أن نلاحظ أن تقسيم العرب إلى قحطانية وعدنانية يرجع أصله إلى شيخ نسابة العرب وهو محمد بن هشام بن السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ على اختلاف ، والكلبى فى كتاب «النسب الكبير» يذكر أن أصول العرب ترجع إلى أصلين : يقطان وقيدار ، ويقطان هو قحطان ، وأما قيدار فهو أصل العدنانية أو الإسماعيلية .

والإسماعيلية - أولاد قيدار هذا - يُربطون فى الروايات التى بين أيدينا بالعدنانية ، والخلاف فى مساق النسب من إسماعيل إلى عدنان ، فأما أهل الاحتياط من نسابة العرب فلا يتعدون فى خط الأنساب عدنان وهم يعولون فى ذلك على حديث نُسِبَ إلى رسول الله ﷺ خلاصته أنه كان لا يجاوز فى نسبه عدنان بن أُدد ويقول كذب النسابون ، قال الله عز وجل : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الفرقان] والاستدلال بالآية الكريمة هنا فى غير موضعه ، مما يدل على أن الحديث كله ضعيف

بل مكذوب ، لأن تمام نص الآية ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الفرقان] .

فالإشارة هنا إلى قوم نوح وبعض من جاء بعده وكلهم من العرب البائدة ولا علاقة له بإسماعيل وعدنان وما بينهما ، وربما يكون هذا هو الذى جعل ابن حزم فى كلامه عن العدنانيين لا يشير إلى ما بين عدنان وإسماعيل مع نصه على أن عدنان من نسل إسماعيل وقال : « وأما كل من تناسل من ولد إسماعيل عليه السلام فقد غبروا ودثروا ، ولا يُعرف أحد منهم على أديم الأرض أصلاً حاشا ما ذكرنا من أن بنى عدنان من ولده فقط »[1] أما المتأخرون الذين لا يحتاطون فيما يقولون فيتكلمون عما نقل هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن التوراة فيصلون بسياقة النسب إلى آدم عليه السلام[2]، ولكنهم فى سياقة النسب يذكرون أنه « ابن حمل بن قيدار بن إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل ... » أى أنهم يجعلون قيدار من أبناء إسماعيل ، ويوجز جرجى زيدان أقوال نسابة العرب فى ذلك الأمر بقوله : « وأقدم ما ذكره العرب من أخبار الإسماعيلية مأخوذ أكثره عن اليهود وعليه صبغة عربية خلاصته أن إسماعيل لما نزل مكة كان فيها بقية من جُرهم ، وآخرهم مضاض بن بشير فتزوج إسماعيل من بناتهم ، وتعلم العربية منهم وتناسل فيهم ، وأولاده هم العرب الإسماعيلية ، ويسمونهم المستعربة ، لأنهم دخلوا فى العرب وهم ليسوا منهم ، كما فعل القحطانية فى اليمن قبلهم . وأشهر أولاد إسماعيل قيدار توَّجَهُ أخواله وعقدوا له الملك عليهم بالحجاز ، واسمه وارد فى التوراة .وتناسل من قيدار أعقاب كثيرة حتى وُلِد عدنان... ومن عدنان تناسل العرب الإسماعيلية . فعندهم أن عدنان ولد عَكاً ومَعَداً ، ومَعَدٌ هو أبو القبائل العدنانية كما سنرى »[3].

وفى بقية كلام جرجى زيدان تفاصيل مما استخرجه من التوراة وكتب العهد القديم من ذكر العرب ، وأهم ما فيه :

---

(١) ابن حزم ، الجمهرة ٧ .

(٢) انظر النويرى . نهاية الأرب ١٦/ ٣ والمراجع التى يعتمد عليها .

(٣) جرجى زيدان ، تاريخ العرب قبل الإسلام . الطبعة الثانية مراجعة وتعليق صاحب هذا الكتاب . دار الهلال القاهرة .

- جاء فى سفر التكوين فى أثناء قصة يوسف عليه السلام بعد أن طرحه إخوته فى البئر قوله : ثم جلسوا يأكلون ، ورفعوا عيونهم، ونظروا فإذا بقافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالها محملة نكعة ، وبلساناً ولاذناً ، وهم سائرون لينزلوا مصر - (سفر التكوين ص ٣٧ عدد ٢٥) . وكان ذلك فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وكان الإسماعيليون يحملون التجارة إلى مصر ، و هم الذين اشتروا يوسف وباعوه بمصر .

- ثم جاء ذكرهم فى سفر القضاة بعد ذلك الحين بخمسة قرون . وهم يحاربون الإسرائيليين ، ويسمون هناك تارة بنو المشرق وطوراً الإسماعيلية (القضاة ص ٦ عدد ٣٣ - و٧ عدد ١٢ - و ٨ عدد ٢٤ و٢٦) .

- وبعد ذلك بخمسة قرون أُخر ذُكر أولئك العرب فى سفر أَشعْيَا باسم قيدار ، وهو فى التوراة ابن إسماعيل ، فيراد باسمه قبيلة الإسماعيلية على الأقل . وهو يتنبأ بقرب زوال مجدهم (أشعيا . ص ٢١ عدد ١٦، ١٧) .

- وأصبح الإسماعيلية فى عرف التوراة من ذلك الحين قبيلتين : قيدار ونبيت. وظن بعضهم أن المراد بالنبيت والنبيط الأنباط ، أصحاب بِطْرا وعارضهم آخرون .

- وبعد أشعيا بنحو القرن وبعض القرن - فى القرن السادس قبل الميلاد - جاء نبوخَذْنَصَّر ، الذى يسميه العرب بُخْتْنَصَّر . واكتسح شمالى جزيرة العرب وغلب على الإسماعيلية أو بنى قيدار أو بنى المشرق فى البادية (يهوديت ص ٢ عدد ٣ ، نبوءة أرميا ص٤٩ عـ ٢٨ ، القضاة ٨ عدد ٢٤ ، ٢٦) .

وقد استخرج جرجى زيدان من نصوص العهد القديم أن الإسماعيلية كانوا إلى ما قبل ظهور المسيح عليه السلام بزمن طويل أهل خيام ورحلة ورعى وماشية وتجارة وثروة ، ثم يقول : إن ذكرهم خَفِيَ بعد أيام بختنصَّر « كان بختنصر أضعفهم ، فتفرقوا وذهبت شهرتهم أو خفيت أخبارهم ، ثم تكاثروا وعادوا إلى الظهور فى أوائل النصرانية أو قُبَيلها ، وهم قبائل أمم وأمم ذات شأن ، ملأوا تهامة وتفرقوا فيها إلى الحجاز ونجد وبادية الشام وغيرها فى أزمان متفاوتة ، القبيلة بعد القبيلة . وترجع كلها إلى خمسة أصول ، لكل أصل منها فروع عديدة . أما الفروع الخمسة المشار إليها فيتصل نسبها بعدنان على هذه الصورة :

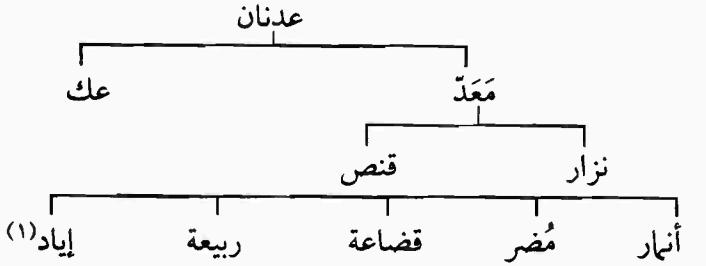

وفى كلام جرجى زيدان فوائد كثيرة أهمها :

١ - إن الإسماعيلية الذين يعتبرون عرب الشمال أو أبناء عدنان شعب قديم من البدو عاش فى صحارى وسط الشام وجنوبه ، وكانوا رعاة ظاعنين وبعضهم كانوا يعملون بالتجارة يكسبون من ذلك مالاً وفيراً .

٢- إنهم كانوا أقوياء مرهوبين ، وإن العبرانيين كانوا يرهبونهم ويحذَرُون منهم .

٣- وإن هؤلاء الرعاة كانوا يذهبون فى متاجرهم ورعيهم إلى بعض نواحى شمالى جزيرة العرب ومصر . وكانوا يعيشون قبائل .

٤- إنهم كانوا يسمون أحياناً بنى المشرق ، والإسماعيلية أحياناً أخرى .

فأما بنو المشرق فهو تعريب خاطىء من جرجى زيدان للفظ Saracenos الموجود فى النقوش اليونانية ، وهو لفظ غير يونانى ومعناه غامض ، فمن قائلٍ إن أصله «شرقينوس » وهى التى جعلها جرجى زيدان بنى المشرق ، ومن قائلٍ إن أصله «سَرِقينوس » ويكون معناه فى زعمهم فى هذه الحالة : السُّراق ، لأنهم بدو مغيرون . وعلى أى حال فإن هذا اللفظ استُعْمِل زماناً طويلاً دلالة على العرب والمسلمين فى العصور الوسطى والعصر الحديث ، فقالوا فى الإنجليزية Saracens وفى الفرنسية Sarrasins وفى الإيطالية Saraceni . وأطلق هذا اللفظ على العرب والمسلمين .

ويستوقف نظرنا من كلام جرجى زيدان قوله : إن أول ذكر جاء للإسماعيلية فى العهد القديم جاء فى سفر التكوين بمناسبة ذكر يوسف عليه السلام ، وقوله : إن ذلك كان فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد .

---

(١) جرجى زيدان ، العرب قبل الإسلام : ١٨٩ - ١٩٠ .

وإذا رجعنا إلى تاريخ مصر القديمة نجد أن غزو الهكسوس لمصر كان حوالى سنة ١٦٧٥ قبل الميلاد . أى بعد ورود ذكر اسمهم فى العهد القديم بقرن وربع تقريباً. والهكسوس كانوا رعاة أى بدواً أغاروا على مصر من ناحية جنوب الشام وجزيرة العرب ، وقد دام سلطانهم عليها فوق القرنين حتى تجرد الملك أحمس منشىء الأسرة السادسة عشرة وطردهم من مصر .

ويستوقف نظرنا هنا أن هؤلاء الرعاة الذين عاصروا على وجه التقريب ظهور اسم الإسماعيلية فى العهد القديم هم الذين أدخلوا الخيل مصر ، وقبل ذلك لم يعرف المصريون الخيل ، وبعدهم أصبحت الخيل جزءاً من الحياة المصرية واستخدمها الفراعنة فى حروبهم ، وكان دخول الخيل والعجلة الحربية بلاد مصر سبباً من أسباب التوسع المصرى فى بلاد الشام وإنشاء ما يسمى فى تاريخ مصر القديمة بعصر الامبراطورية ، وسنرى بعد قليل أن العرب الإسماعيلية هم الذين جلبوا الحصان المستأنس من بلاد العراق . وكان قد أتاها من موطنه الأصلى فى صحارى وسط آسيا . والأشوريون أخذوا الخيل والعجلات الحربية مما يليهم من بلاد وسط آسيا ، وعنهم أخذ الرعاة الهكسوس الخيل والعجلات الحربية وأدخلوهما مصر . ولا تعارض بين هذا وما ذكرناه عن الهكسوس فى كلامنا عن العرب العاربة ، فإن الهكسوس هم الرعاة وقد طال مكثهم فى بلاد الشام قروناً متطاولة ، وفى بعض عصور قوتهم غزوا مصر واحتلوها ثم طردهم منها الملك أحمس .

فإذا رجعنا إلى حفريات الأثريين نجد أن هذا الوقت على وجه التقريب هو الذى ظهرت فيه حفائر الخيول فى نواح شتى من أطراف الجزيرة العربية الشمالية ، وقد انتشرت الخيول بين العرب الإسماعيلية من ذلك الحين وركبوها واشتد ساعدهم بها . وأصبحوا من ذلك الحين قوة يُـخْشى بأسها فى بلاد الشام وما بين النهرين . ويمكن القول بأن غزوة الملك بختنصَّر لبلاد الشام كان غرضها القضاء على قوة أولئك العرب الرعاة الإسماعيلية الذين أصبحوا قوة مرهوبة فى بلاد الشام ، وكانت الحروب بينهم وبين العبرانيين متصلة. وامتدوا من ناحية أخرى فأغاروا على مصر ، واستقرت منهم جماعات فى شبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية التى تُعرف إلى الآن بصحراء العرب .

أما بالنسبة لبلاد العرب فإن استخدام الخيل أضاف إلى أولئك الإسماعيلية قوة فرسان كبيرة ، وعندما تكاثرت أعدادهم وحاولوا التغلب على ما جاورهم من البلاد فطاردهم - على أوقات متفرقة - الأشوريون من بلاد ما بين النهرين ، والمصريون من مصر .

ووجد أولئك البدو الرعاة - عندما تكاثرت أعدادهم مرة أخرى - الطرق مفتوحة أمامهم للامتداد فى وسط الجزيرة وجنوبها . إما بسبب مطاردة الملوك لهم ، أو لأنهم كانوا فى عصر قوة وكثرة عدد واتجاه إلى التوسع فى الأرضين .

ومن غريب ما يتفق لنا من النصوص العربية أن اليعقوبى يقول فى كلامه على «ولد إسماعيل بن إبراهيم » : ذكرت الرواة والعلماء أن إسماعيل بن إبراهيم أول من نطق بالعربية وعَمَّر بيت الله الحرام بعد أبيه إبراهيم ، وقام بالمناسك . وأنه كان أول من ركب الخيل العِتاق . وكانت قبل ذلك وحوشاً لا تُرْكَب . وقال بعضهم : إن إسماعيل أول من شق الله فاه باللسان العربى ، فلما شب أعطاه الله القوس العربية ، فرمى عنها فكان لا يرمى شيئاً إلا أصابه . فلما بلغَ أخرج الله من البحر مائة فرس ، فأقامت ترعى بمكة ما شاء الله . ثم ساقها الله إليه . فأصبح وهى على بابه ، فَرَسَنها وركبها ، وأنتجها : وكانت دواب الناس البراذين . وركبها إسماعيل وبنوه وولده . وفى إسماعيل يقول بعض شعراء مَعَدّ :

أبونا الذى لم تُركب الخيلُ قبلَه ولم يَدْر شَيْخ قبله كيفَ تُـرْكَبُ

ويقال : إنما سميت « أجياد » مكة لأن الخيل كانت فيها . فأوحى الله عز وجل إلى إسماعيل أن يأتى الخيل فأتاها فلم تبق فرس إلا أمكنته من ناصيتها ، فركبها ، وركبها ولده ، فكان إسماعيل أول من ركب الخيل ، وأول من نفى أهل المعاصى عن الحرم ، قال « أُعَرِّبه » فسميت « العربة » بذلك[1].

---

(١) نص اليعقوبى هنا لا يعين حقائق تاريخية محددة وإنما هى إشارة أسطورية الطابع نأخذ نحن بمعناها فى مجمله . أما التفاصيل فليس لدينا دليل على صحتها . فلا نعتقد بأن هناك علاقة بين اسم أجياد الموضع المعروف بجنوبى مكة ، والخيل أو الجياد ، وليس هناك كذلك ما يؤيد زعم اليعقوبى أن لفظ أعرِّبُه معناه أطهِّره بنفى المعاصى عنه . والمعروف أن لفظ العربة - اسماً لجزيرة العرب - له اشتقاقات أخرى . تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٢١.

وهذه أخبار أسطورية الطابع ، ونحن نأخذ هنا بمجملها أو دلالاتها ، فهنا إشارة إلى علاقة إسماعيل بالخيل ، ونحن لا نستنتج من هذا أن إسماعيل هو الذى استأنس الحصان كما يريد هذا النص أن يقول ، ولكننا نجد فيه توكيداً لما دلت عليه أبحاث الأثريين من أن دخول الخيل جزيرة العرب كان مرتبطاً بالإسماعيلية كما كانت عودة الجمل إلى داخل الجزيرة مرتبطة بالإبل .

وتُجمع الشواهد التاريخية على أن العرب الإسماعيلية أو المستعربة دخلوا الجزيرة من الشمال على أهلها من العرب العاربة ، وهم دخلوها معتمدين على سلاح جديد كان له أثر الانقلاب فى كل ناحية ظهر فيها وهو الحصان ، فقد كان استئناس الحصان فى صحارى منغوليا ووسط آسيا إيذاناً بميلاد امبراطوريات مناطق الأعشاب Les empires des steppes أو امبراطوريات قامت على ظهور الخيلà Les empires dos des chevaux والمصطلحان من ابتكار العالم الفرنسى جروسّيْه Grousset وهو أول من كتب مُؤلَّفاً جامعاً عن دول البدو الآسيويين واعتمادها على الحصان . والحصان وصل إلى غرب آسيا من أيام الآشوريين وعنهم أخذه العرب الرعاة فى صحارى الشام ، واعتمد عليه الهكسوس فى غزوهم مصر على ما قلناه . ومن غربى آسيا الصغرى على الأغلب انتقل الحصان إلى اليونان والرومان وأصبح من القرن الرابع قبل المسيح حيواناً أوروبياً ، وقد تطور هناك بحسبه ظروف البيئة ومطالبها ، وظهر الحصان الأوروبى القوى الثقيل العظام الضخم الجسم الغليظ الأرجل .

وقد عرف أهل أوروبا منذ الزمن القديم نوعين من الخيل : خيل العمل الزراعى والحمل الثقيلة البطيئة الحركة الكثيرة الطعام المعروفة باسم Caballus ومنه لفظ Cheval الفرنسى ، وحصان القتال الخفيف بعض الشىء الذى يتميز بصفات قتالية عظيمة ، وهو المعروف باسم equus وهو أقوى وأمضى أداة حرب عرفها الرومان . والفرسان Equestri كانوا معدودين فى طبقة النبلاء بسبب قدرتهم على الحرب على ظهور الخيل ، وكلا هذين النوعين من الحصان يدخلان ضمن ما يسمى بالحصان الكبير The big horse نظراً لضخامة حجمه وثِقَل وزنه وقدرته على العمل فى الحقول والمدن وشجاعته فى ميادين الحروب . وعلى أى حال فإن الحصان كان دائماً

أكبر معين للإنسان على بناء الدول والحضارات تبعاً لذلك ، وليس هناك دولة كبرى أو صغرى أو حضارة كبيرة أو صغيرة إلا وللحصان فيها نصيب .

وهذا أيضاً ينطبق على العرب قبل الإسلام وبعده ، فإن الحصان الذى دخل صحارى الشام آتياً من بلاد وراء النهرين أو من آسيا الصغرى وجد فى فلوات بلاد الشام ومراعيها بيئة أنشأت نوعاً جديداً من الخيل ، فإن الحصان المغولى الأول والذى يُعتبر أباً للخيل كلها حيوان صغير الحجم نسبياً قصير الساقين غليظ العنق ، ولكنه حصان قوى متين العظام شديد الاحتمال ، فلما دخل مناطق الحشائش الطويلة فى شمال الشام وجزيرة العرب وجد بيئة جديدة تطور فيها مع الأحقاب ، فنشأ الجواد العربى الصغير الحجم نسبياً الطويل الرِّجْلين ، الطويل العنق ، القصير الشعر ، العصبى المزاج، السريع الحركة ، المتين العظام ، الصحيح البدن ، الواسع الصدر ، الصغير البطن ، المتين الظهر ، الخفيف العَجُز ، الطويل الرقبة مع انحناء جميل فيها ، ورأس صغير فى غاية الانسجام مع الرقبة الأنيقة وانسراح الجسم كله مع لمعان الشعر وزهاء اللون . وتميز ذلك الحصان إلى جانب ذلك فى معظم الحالات بالغُرَّة ، وهى الشارة البيضاء فى الجبهة التى تمتد حتى الأنف أحياناً ثم الحجل وهى المنطقة البيضاء عند رُسغ القوادم والخوافى ، وقد يقتصر التحجيل على ثلاث قوائم ، ويضاف إلى ذلك كله معرَفة جميلة تُكْمِل جمال العنق الصغير والرأس وذيل أنيق يتدلَّى من آخر ظهر الحصان كأنه شعر الحسناء .

وهذا هو الحصان العربى الذى يعتبر من أفضل صنوف الخيل وأكثرها امتيازاً. فهو إلى جمال هيئته يمتاز بذكاء لا بأس به . وإذا كانت الخيل تعتبر رابعة فى الذكاء فى عالم الحيوان بعد الفيلة والقرود والكلاب فإن الحصان العربى يختلف مستواه من الذكاء بحسب استعماله ، فهو إذا أُحسن استعماله وعومل برفق ومحبة واحترام شُحِذَ ذكاؤه وأصبح من أعون الحيوان للإنسان ، فهو يتعرف من تلقاء نفسه على مواقع الماء باطنه وظاهره بغريزة صافية ، وهو مطواع لصاحبه شديد التعلق به وإذا أُحسن تدريبه اقتحم النار والماء وقفز من حالق دون تردد .

وقد كان العربى الجاهلى من أحسن الناس معاملة للخيل ومحبة لها وحَدْبًا عليها

وعناية بها ، ولهذا وُصِف الحصان العربى فى الجاهلية بأرفع الصور ، لأنه كان صديق صاحبه ورفيقه وأكبر معين له فى الحياة ، ويتجلى ذلك فى الشعر العربى بأجلى بيان . وقد كانت عناية رسول الله ﷺ والعمرين بالخيل عظيمة ، ويكفى أن رسول الله ﷺ جعل نصيب الفارس من الغنيمة ثلاث مرات قدر الراجل: واحد للفارس نفسه ، وواحد لطعام الحصان ، وثالث للعناية به .

وهذا الحصان العربى شريك بحق النصف فى الفتوح العربية ، فمعظم انتصارات المسلمين يرجع الفضل فيها إلى أنهم كانوا ركباناً يحسنون معاملة الخيل وقيادتها والعناية بها . وقد ظهر اهتمام رسول الله ﷺ بالخيل بعد ما رأى من فتكها بالمسلمين فى يوم أُحُد ، وبعد انتصاره على بنى قريظة واستيلاء المسلمين على أموالهم استعمل الرسول معظم خُمس الله ورسوله فى شراء الخيل من نجد وتربيتها وإنتاجها فى أحماء المدينة .

وهذا الحصان العربى الذى قام بهذا الدور الكبير فى تاريخ العرب والإسلام هو الحصان الذى تربى وتتطور على أيدى العرب فى الشام ، وعلى صهوته دخلوا الجزيرة واستقروا فى شمال الجزيرة ووسطها . وقد تمكن العرب المستعربة الذين سميناهم بالإسماعيلية من التفوق على من وجدوه فيها من جماعات العاربة وانتشروا فى نواحيها وتبحبحوا فى مراعيها ، وكثرت فيها فروعهم وقبائلهم واستعربوا أى صاروا عرباً .

ولدينا نص لليعقوبى يؤيد هذا الذى قلناه وإن كان أسطورى الطابع . قال : «كان وَلَد جُرْهم بن عامر لما صار إخوتهم من بنى قحطان بن عامر إلى اليمن فملكوا ، صاروا هم إلى أرض تهامة فجاوروا إسماعيل بن إبراهيم ، فتزوج إسماعيل الحَنْفَاء بنت الحارث بن مُضاض الجُرْهُمى فولدت له اثنى عشر ذكراً هم : قيدار ونابت وأدبيل وميشام ومسمع ودوما ومسا وحداد وتيما ويطور ونافس وقيدما ، وهذه الأسماء تختلف فى الهجاء واللغة لأنها مترجمة من العبرانية ، فلما كملت لإسماعيل مائة وثلاثون سنة توفى فدُفِن فى الحِجر ، فلما توفى إسماعيل ولى البيت بعده نابت بن إسماعيل ، ويقال : وَليه قيدار ، وبعد قيدار نابت بن إسماعيل .

وافترق ولد إسماعيل يطلبون السعة فى البلاد ، وحبس قوم أنفسهم على الحرم.

فقالوا : لا نبرح من حرم الله! ولما توفى نابت - وقد تفرق ولد إسماعيل - وَلِيَ البيت المضاض بن عمرو الجُرهمى ، جد ولد إسماعيل .. وطغت جُرْهم وبغت وظلمت وفَسَقَت فى الحرم ، فسلط الله عليهم الذَّر ، فأُهْلِكوا به عن آخرهم . وكان ولد إسماعيل منتشرين فى البلاد يقهرون من ناوأهم ، غير أنهم كانوا يسلمون بالمُلْك لجُرْهم للخئولة . وكانت جرهم تطيعهم فى أيامهم. ولم يكن أحد يقوم بأمر الكعبة فى أيام جُرهم غير ولد إسماعيل تعظيماً منهم لهم ومعرفة بقدرهم . فقام بأمر الكعبة بعد نابت : أَبَيْنَ ، ثم يشجب بن أَبين ثم الهميسع ، ثم أدد فعظُم شأنه فى قومه ، وَجَلَّ قدرُه. وأنكر على جرهم أفعالها وهلكت جرهم فى عصره . ثم وَلى عدنان بن أدد ثم مَعدّ بن عدنان . ثم افترق ولد عدنان فى البلاد ولحق قوم منهم باليمن منهم عك...»[1].

وقد أوردنا معظم هذه العبارة لأننا سنتناولها بالتحليل والدراسة على ضوء ما عرفنا وما نعرف الآن عن تاريخ العرب . وهى عبارة غنية بالفائدة حافلة بالمعانى ، وقد اختصرنا ما وجدناه مسرفاً فى القصصية والأسطورية. ونلاحظ قبل أن ندخل فى الدراسة أن هذا النص نموذج من طريقة معظم مؤرخى العرب فى سياقة تاريخ ما قبل الإسلام ، فهم يبدأون من النهاية ، أى يبدأون من الحقيقة الواضحة أمامهم وهى أن محمداً ﷺ هو القمة التى انتهى إليها تاريخ العرب قبل الإسلام ، ومن القمة يسيرون إلى بنى هاشم فبنى عبد مناف بن قصى فكنانة فعدنان فأولاد إسماعيل . ثم يصوغون التاريخ كله بادئين من إسماعيل وموجِّهين للحوادث فى الاتجاه الذى ينتهى بهم إلى الذروة المحمدية ، وتلك هى الصياغة العكسية للتاريخ. وإذا نحن قرأنا كتب التاريخ التى كتبها المسيحيون فى العصور الوسطى وجدنا التوجيه ينتهى منذ البداية عند عيسى عليه السلام ثم الحواريين وبولس خاصة ، وعندنا كتاب القديس أوغَسْطين المسمى مدينة الله Civitas Dei وهو المثال التقليدى الذى يضربه أساتذة علم التاريخ فى الغرب نموذجاً للرؤية التاريخية المنظورة من النهاية التى يريد أن ينتهى إليها صاحب التاريخ أو ما يسمى باسم Retraspective view of history .

---

(١) اليعقوبى تاريخ ١/ ٢٢١ - ٢٢٣.

ونعود إلى الفقرة التى نحن بصددها من كلام اليعقوبى لنحللها ونستخرج ما فيها من الدلائل التاريخية على ما نحن بصدده من تتبع تاريخ العرب المستعربة .

وإليك أهم ما نخرج به من هذا النص وما مررنا به من الظروف :

١ - أن أولئك العرب الإسماعيلية أو المستعربة دخلوا الجزيرة من بلاد الشام ، وليس من الضرورى أن يكونوا جميعاً من أولاد إسماعيل ، فإن هجرة إسماعيل كانت هجرة إلى داخل الجزيرة : تحرك قوم من عرب الشام إلى داخل الجزيرة فتبعتهم أقوام ، وكان منهم نفر من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . وليس من الثابت على أى حال أن إسماعيل أقام فى الحجاز بعد أن كبر ، وقد يكون القوم الذين دخلوا الجزيرة وسموا بالإسماعيلية نفراً من أولاده أو المنسوبين إليهم ، وعلى أى حال فقد غلب اسم الإسماعيلية على حركة هجرة العرب المستعربة من خارج الجزيرة إلى داخلها.

٢ - وهجرة أولئك الناس من الشام إلى الجزيرة مرتبطة باستخدامهم الخيل ، فقد ركبوها واعتزوا بها وغلبوا على غيرهم ، وانفسح أمامهم المجال للهجرة إلى الجزيرة معتزين بالخيل .

٣ - والواضح من النص أن أولئك المهاجرين لم يكونوا عرباً ولا كانت أسماؤهم عربية ، وليس من الضرورى أن يكونوا جميعاً عبرانيين بل كان فيهم من أهل الشام وجنوبى العراق من سُريان وأنباط وبقايا الكلدانيين . فأسماء الأعلام التى أوردناها فيها العبرى والسريانى والنبطى والكلدانى وفيها ما لا يمكن التعرف على هويته بسبب التحريف الشديد فى المخطوطات .

٤ - وقد مر أولئك المهاجرون فى هجرتهم بمن كان فى طريقهم من العرب العاربة ما بين قضاعة وتَنوخ ، وبعضهم كان من فروع هذه القبائل ، فاندفعوا مع المهاجرين إلى داخل الجزيرة ، وكانت قضاعة ممتدة إلى بلاد الحجاز ، فغلبهم أولئك المهاجرون الجُدد وتسلطوا عليهم .

٥ - وفريق من هؤلاء اتجهوا إلى الحجاز ، ومن هؤلاء العدنانيون الذين مروا فى

طريقهم بأرض جذام وجهينة وبلى وبقية فروع قضاعة فى الحجاز ، فاختلطوا بهم اختلاطاً متصلاً يتجلى فى أنساب العدنانيين الإسماعيليين ، وأولئك الإسماعيليون هبط نفر منهم غربى جبال السراة فى الحجاز وانتشروا كذلك فى شمال شبه الجزيرة ووسطها ، وبعضهم استقر فى شرقها ، وليس من الضرورى أن يكون كل أولئك الإسماعيلية المستعربة عدنانية ، أى منحدرين من عدنان ، فقد تكون هذه قراءة متأخرة لشجرة النسب ، أى محاولة من النسابة لربط جميع الإسماعيلية أو المستعربة إلى عدنان وإسماعيل عن طريق مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وواضح أن هذه الأسماء كلها ليست لرجال انحدرت منهم قبائل، بل هى أسماء القبائل نفسها ، بل ليس من الضرورى أن تكون قد انحدر بعضها من بعض على الصورة التى يصورها لنا النسابة ويحكيها المؤرخون ، فهذا الذى نراه من التفرق والتجمع ثم التجمع ثم التفرق وجماعات تختفى وجماعات تظهر إنما هو نتيجة لما حكيناه من أسلوب تكوين المجموعات القبلية وتفرّقها تبعاً لقانون الحياة فى الصحراء، فالأغلب أن بنى إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان كانوا قبيلاً آخر يختلف عن قبيل قيس عيلان المنسوب إلى مضر وما تفرع منه ثم ارتبط بعضهم ببعض لدواعى البقاء فى الجزيرة أو لدواعٍ سياسية بعد الإسلام فقيل : إن أبناء مضر فرعان كبيران : قيس عيلان بن مضر ، وإلياس بن مضر ، والحقيقة أن البون بعيد بين بنى إلياس ومن تفرع منهم وبالذات « أولاد امرأته خندف » وبين قيس بن عيلان أو قيس عيلان ومن تفرع عنهم أو انتسب إليهم ، ولأول قيام الإسلام سنجد فروع قيس عيلان معادية لدعوته التى نادى بها رجل من قريش بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر .

والكلام هنا يتعلق - منطقياً - بوحدات قبلية يرتبط بعضها ببعض بعلاقات لا نعرف حقيقتها على وجه التحقيق ، فهى فى شجرات الأنساب روابط قرابة ودم ، ولكنها فى واقع الحياة ودلالات التاريخ علاقات مصالح ، وما دامت علاقات مصالح فهى ليست ثوابت بل متغيرات ، ومن هنا نفهم مثلاً كيف كان بنو قيس

عيلان بن مضر يقفون أنداداً وأعداء لقبائل قيس عيلان إلياس بن مضر قبل الإسلام، ثم انضموا إليهم وأيدوهم وصاروا معهم أوائل العصر الأموى ثم صاروا أعداءهم فى آخره .

وقد تكون بعض الأسماء الكثيرة الواردة فى شجرات الأنساب مجموعات من العرب العاربة انضمت إلى الداخلين الجُدد واختلطت بهم اختلاط أنساب فظهرت لنا فى شجرات الأنساب من جانب كنانة مع أن كل البينات تقول إنها ليست منها مثل عَضْل والهُوْن والقَارّة فهذه تبدو لنا وكأنها غريبة عن كنانة بن خزيمة وكان عداؤها لكنانة وقريش أوائل الدعوة الإسلامية عظيماً حتى إن رسول الله ﷺ دعا ربه أن يعينه عليها ، ومن مأثور قول رسول الله ﷺ فى بعض مغازيه : اللهم على مضر ، فَعَلى أىِّ مضر يستعين رسول الله ﷺ بالله سبحانه ؟ وهو نفسه ذؤابة مضر ؟ الجواب : على بنى قيس عيلان بن مضر وهو أخو إلياس بن مضر .

فَرع قَيس عيلانَ بن مُضَر :

والذى يعنينا هنا هو أمر كنانة ، فإن قريشاً منها . وكنانة تنحدر من - أو تنسب نفسها إلى - خزيمة ، وخزيمة من مدركة ، ومدركة من إلياس ، وإلياس هو الفرع الثانى من مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

ويستوقف نظرنا أن إلياس وقيس عيلان أمهما فيما يقول النسابة أَسْمى بنت سَوْد ابن أسلَم بن الحارث من قضاعة ، فهما مضريان من ناحية الأب وقضاعيان من ناحية الأم .

وإلياس بن مضر يتزوج فيما يقولون امرأة من قضاعة هى خِنْدِف ذات الصيت البعيد فى شجرات الأنساب ، فكل أولاد إلياس مُضَريون أباً ، قضاعيون أُماً ، وكلهم خندفيون قضاعيون من ناحية الأم . وكل المضريين كانوا فخورين بهذا النسب الخندفى حتى إن نصر بن سيار آخر عمال بنى أمية على خراسان وهو من جُندع بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة يفتخر بنسبه إلى خندف :

أنـا ابـن خنـدف تنـمينـى قبـائلـها للصالحات ، وعمى قيس عيلانا[1]

ويزيدنا المصعب الزبيرى معرفة بخندف القضاعية هذه ، وسأورد كلامه فى هذا الشأن فى صورة جدول تتضح به خيوط النسب وتسلسله بأكثر مما تتضح فى النص المكتوب (نسب قريش ص ٧-٨) .

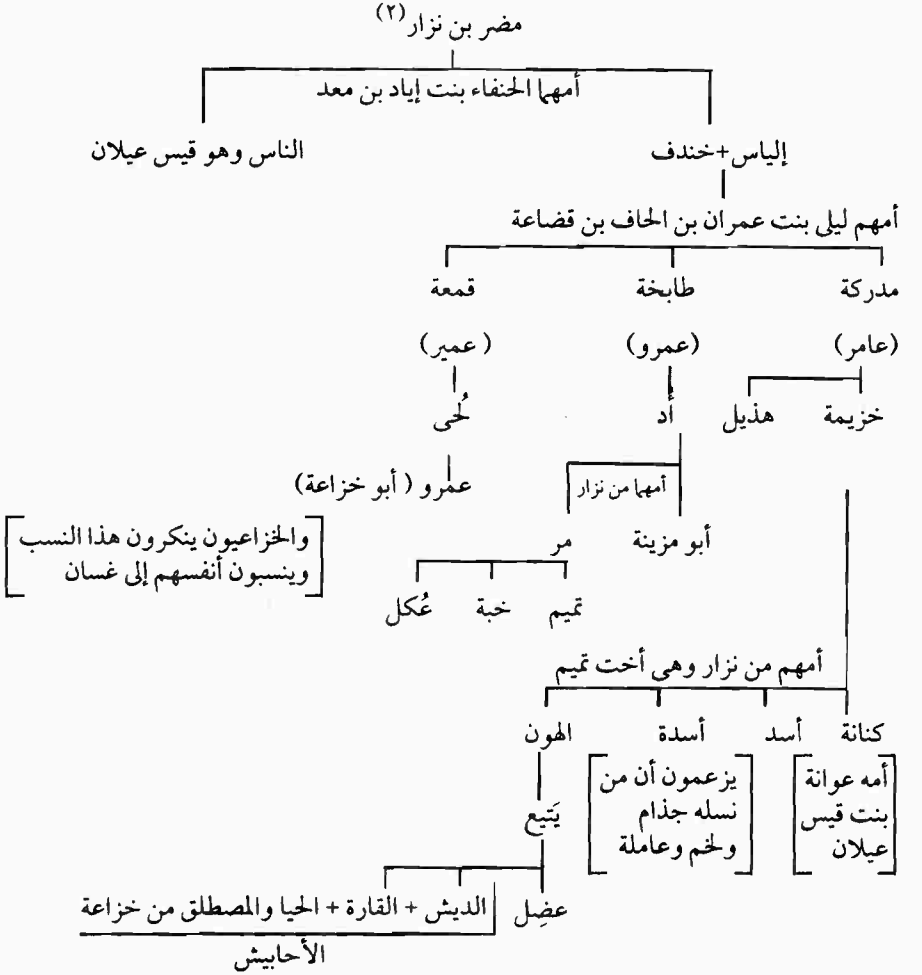

(١) ابن حزم ، الجمهرة : ١٠ .

(٢) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ١٠ وانظر الجدول الكبير لأنساب عدنان الملحق بهذا الكتاب .

وإذن فخندف القضاعية هذه كانت جذع شجرة ضخمة أنجبت من قبائل إلياس ابن مضر عدداً كبيراً جداً من القبائل ، ونحن لا نأخذ بأقوال هؤلاء النسابة ، فمن الواضح أن كلامهم هنا تجميع وتصوير لحقائق جَدَّت بعد الإسلام ، سواء فى حياة الرسول ﷺ أم بعده ، فنحن نجد فى أحفاد خندف مزينة ، ومزينة ظهر أمرها فى مطلع خلافة أبى بكر ، فهم كانوا أول من وقفوا معه وأيدوه عند الردة ، ونجد من ولدها الهون وعضل والقارة والديش مع أن هؤلاء كانت لهم أعمال ومواقف غير محمودة فى معارضة الإسلام وأذى أهله حتى فتح مكة ، وكان لابد من تحسين صورتهم بعد انتصار الإسلام فَرُبِطوا إلى شجرة النسب النبوى عن طريق خندف القضاعية . وعضل وديش والقارة والحيا والمصطلق ، والاثنتان الأخريان من هذه القبائل تنتسبان إلى خزاعة وهم من الأحابيش الذين خرجوا مع قريش لقتال أمة الإسلام فى المدينة فى غزوة الأحزاب وهذه خطيئة تغطى عليها شجرة الأنساب بالربط بالشجرة النبوية عن طريق خندف .

أما بنو المصطلق الخزاعيون فهم أصحاب ماء المُرَيسيع وهم فرع خزاعة الذى خرج على إجماع خزاعة فى تأييد أمة الإسلام وأرادوا الإضرار بالتوازن القبلى الذى أقامه الرسول بالنسبة للقبائل النازلة على الطريق بين المدينة ومكة . وأقوى هذه القبائل خزاعة (وقد أخذت ناحية الإسلام) وبنو عبد مناة من كنانة بفروعهم العديدة وأهمهم بنو كعب الذين وقفوا إلى جانب قريش ضد الإسلام ، فيريد الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق الخزاعيين أن يخلخل هذا التوازن جهلاً منه وسوء تقدير ، فيسارع الرسول إلى توجيه ضربة بالغة العنف إلى هذا الرجل البدوى المغرور الجاهل بما يدور حوله وتكون غزوة المريسيع أو بنى المصطلق ، ويفيق الحارث بن ضرار وقومه من غفلتهم ويتحرج موقفهم فيبادر الرسول ببعد نظره واتجاهه العام إلى إخراج شيوخ البدو من عنادهم وغرورهم وكسبهم للإسلام بعد ذلك ، فيكون زواجه من جويرية بنت الحارث بن ضرار وإطلاق أسارى بنى المصطلق جميعاً لأنهم أصبحوا أصهار الرسول ، وينضم بنو المصطلق إلى إخوانهم من خزاعة ويقفون فى صف الإسلام ويحسن إسلامهم ، فهم حلفاء أصهار ، ويلحق بهم فى الحلف أبناء عمومتهم بنو الحيا بن المصطلق .

وهذا كله يُتَرْجَم تاريخياً على أيدى النسابة عن طريق خندف القضاعية ، وليس هذا بكثير - ولا مستغرب - بالنسبة لخزاعة . فإن دور خزاعة فى تاريخ الإسلام عظيم مستمر حتى الحركة العباسية . وخزاعة كانت عصباً قوياً جداً من العصبات التى شدت أزر الدعوة العباسية وخاصة عن طريق أولاد بُرَيْدة بن الحُصيب الأسلمى صاحب رسول الله ﷺ ، وصاحب راية أسامة بن زيد بن حارثة فى سريته إلى الشام للانتقام لمقتل أبيه فى مؤتة ، وهو كذلك من أكابر حلفاء علىّ بن أبى طالب.

والذى يهمنا ونحن نتتبع هنا خطوة خطوة - خط نسب كنانة أم قريش - هى تلك العلاقة الوثيقة بين كنانة وقضاعة ، وهى علاقة استمرت على طول تاريخ كنانة وقريش قبل الإسلام وبعده .

ونصل إلى كنانة بن خزيمة بن مدركة . وكنانة هى أم قريش وأم كل قرشى ورسول الله ﷺ يُنسب إلى كنانة . وكُتَّاب العرب يقولون إن كنانة كان رجلاً ، ولكننا بناء على ما بيناه فيما سلف نقول إنها قبيلة انحدرت عن قبيلة أخرى هى خُزيمة وتلك عن قبيلة أخرى هى مدركة أو عامر . والانحدار هنا معناه تفرُّق القبيلة الأم بعد تجمعها نتيجة لظروف العيش فى الصحراء على ما ذكرناه ، ثم تجمُّعها مرة أخرى تحت اسم جديد هو اسم فرع من فروعها قام بعملية التجميع ، وليس من الضرورى أن يتم التجميع فى مواطن القبيلة الأم ، بل قد يحدث فى مكان بعيد هو مواطن القبيلة التى قامت بالتجميع ، وليس من الضرورى كذلك أن تكون الفروع التى يتكون منها التجمع الجديد هى نفس فروع القبيلة الأم أو من بعض هذه الفروع ، بل تدخل هنا فروع جديدة لقبائل أخرى تفرقت .

وهذا ما يعبر عنه النسابون فى مصطلحهم بلفظ «الدخول» فيقولون : إن بنى فلان دخلوا فى بنى فلان ، والمراد به أن ذلك الفرع ترك جذع الأم وانضم إلى تكوين قبلى جديد ، لأن القبائل كانت تتكون من وحدات قبلية صغيرة ، ولا تزال تنمو حتى يصل حجمها إلى درجة يصعب معها المحافظة على الوحدة فتبدأ فى التفرق ، ثم تتجمع القبيلة المتفرقة تحت اسم جديد على يد أحد بطونها ، فتأخذ اسم البطن الذى قام بالتجميع الجديد ، وليس من الضرورى أن يكون التجمع الجديد من نفس بطون

المجموع الذى تفرق بل تدخل فى تكوينه وحدات أخرى من أصول شتى . وهذه الظاهرة تسمى التجمع والتفرق Integration and desintegration.

وقد طالما حيَّرتنا الأسماء المزدوجة لكثير من القبائل ، فيقال مثلاً : فولد إلياس بن مضر مدركة واسمه عامر ، وطابخة واسمه عمرو وقمعة واسمه عُمير [١] . فكيف يكون اسم الرجل مدركة ثم يقال إن مدركة هو عامر ، أو أن اسمه طابخة ثم يقال إن طابخة هو عمرو ، أو إن اسم الرجل قمعة ثم يقال إن قمعة هو عُمير ؟ لقد قرأت عند المصعب الزبيرى سطراً أظن أنه يحل لنا هذا الإشكال ، قال فى سياق كلامه عن فروع أنمار بن نزار «ومنهم خزيمة وهم يشكر ، وقد انتسبوا فى الأزد ، ومنهم خثعم وهو أقْيَل بن أنمار بن نزار ، وإنما خثعم جبل تحالفوا عنده فنُسبوا إليه ، وهم بالسراة على نسبهم إلى أنمار بن نزار .. [٢] » . وإذن : فقبيلة أقيل بن أنمار تسمى خزيمة ، لا لأن خزيمة هو أقيل ، بل لأن خثعم جبل تحالفوا عنده فسموا به .

ونسأل : من الذين تحالفوا ؟ والجواب : جماعة أقْيَل أو يشكر ، وربما كانت أقيل جماعة ويَشْكُر جماعة فتحالفوا عند جبل خثعم وأطلق على الحيين معاً خثعم ، وأصبحا بذلك حِلفاً جديداً هو الذى حمل الاسم الجديد ، وانطوت تحته الجماعات التى تحالفت عنده . ومثل هذا الكلام يقال عن مدركة مثلاً الذى يقال إن اسمه عامر بن إلياس بن مضر ، فهذه جماعة من حلفاء جماعة إلياس بن مضر تحالفوا وأصبح اسمهم جميعاً مدركة ، وقد يكون مدركة اسم جبل أو عين ماء أو سهل أو ما شئت ، ولكنه أصبح من ذلك الحين عَلَماً على الناس الذين تحالفوا عنده أو تحت اسمه وقد يكون مدركة اسم طوطم أو صنم تحالفوا عنده ، ومثل ذلك يقال فى طابخة الذى يقال إن اسمه عمرو ، وقمعة الذى يقال إن اسمه عمير ، فهذه كلها أحلاف أو جماعات لقبائل ممن انقسم إليهم بنو إلياس من مضر ، ثم تجمعوا فى وحدات جديدة ذات أسماء جديدة يربط بينها الانتساب إلى أصل واحد هو إلياس بن مضر بن نزار .

وهذا يؤيد ما قلناه من أن الأسماء التى لدينا فى شجرات الأنساب ليست كلها

---

(١) المصعب الزبيرى ، نسب قريش ٧ .
(٢) نفس المصدر : ٧ .

أعلام أشخاص أو أعيان رجال وإنما هى فى الغالب أعلام أحلاف قبلية ، أو أن كلاً منها جُماع نسب أى اسم تَتَجَمَّع تحته أنساب كثيرة كما سنرى فى حالة قريش ، وهذه الأحلاف القبلية التى تسمى عند النسابة قبائل هن تجمعات يخلف بعضها بعضاً على أساس التجمع ثم التفرق ثم عودة التجمع تحت اسم جديد وهكذا ، وهذا لا يعنى بالضرورة أن الأعمار بينها متطاولة ، أى أن التجمع الذى نسميه قبيلة يتجمع ويشتد أمره ثم يتفكك وتقوم مكانه أو من بين مفرداته جماعة أخرى يتم فى أمد قصير ، فقد تتجمع الوحدة القبلية وتتفرق ثم تتجمع فى ثلاثة أجيال ، فتكون أعمار الجماعات هنا فى مثل أعمار البشر ويكون حجمها صغيراً نتيجة لذلك ، وهذا يصدق على الجماعات الصغيرة ، أما الكبيرة مثل قضاعة فلابد أنها احتاجت فى تجمعها إلى أجيال متطاولة ، ثم تفرقت على أجيال أيضاً ، وظهرت الوحدات الجديدة المنسوبة إليها مثل جهينة وبلى وكلْب بن وبرة على أجيال .

وهذا يفسرلنا لماذا نجد القضاعيين لا يعرفون أصلهم معرفة الواثق ، وكذلك فرعاها جُهينة وبَلى ، لأن هذه التطورات تتم على أجيال تُنسى معها - الأصول ، وخاصة بين أقوام من البدو يعيشون على الفطرة حياة هى فى الحقيقة مجرد محافظة على البقاء أو ما يسمى أو يعرف بلفظ Survival فإن قضاعة قامت فى بوادى الشام ، ثم امتدت إلى بوادى جزيرة العرب والحجاز ، وتفرقت وقامت على بقاياها وحدات جديدة فى الحجاز وشمالى الجزيرة . وبقيت من قضاعة بقية فى مواطنها الأولى التى ظلت تُعرف باسم ضاحية قضاعة عند دومة الجندل والقَرْيَات وما يليها شمالاً حتى بلاد كلب بن وبرة ، وهم أيضاً ممن نشأ عن تفرق حلف قضاعة.

وقد خصص أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر فصلاً لقضاعة فى كتابه «الإنباه على قبائل الرواة» بيَّن السبب فى حيرة هذا القبيل الضخم من العرب بين قيس واليمن ، وبعد كلام طويل عن أصول شتى يقول ابن عبد البر : «وقال محمد بن حبيب : إنما فسد نسب قضاعة بالحرب التى كانت بالشام أيام حُميد بن حريث (بن بحدل الكلبى) وعمير بن الحباب (السلمى)، وذلك أن خالد بن يزيد (بن معاوية بن أبى سفيان) قال لأخواله من كلب- وكان مطاعاً فيهم- وهم سادة قضاعة: أطيعونى

وحالفوا اليمن وانتسبوا إليها فإنكم تذلون بذلك بنى مروان ومن انحط فى أهوائهم من قيس وغيرها ، فأطاعه بعضهم وعصاه آخرون ، فكان بعضهم يقول : حالفنا اليمن ، وبعضهم يقول : بل نحن منهم [1].

وقبل أن ننتقل إلى كنانة ونركز الكلام عليها ، لابد أن نقول إن كل ما ذكره من ظواهر حياة القبائل وتطورها وحقائق أسمائها ينطبق على قيس عيلان بن مضر - أو من مضر - وهم الفرع الكبير الثانى من الإسماعيلية أو المستعربة الذى سار موازياً لأبناء إلياس بن مضر : فأبناء إلياس بن مضر دخلوا الحجاز ثم تهامة ، أما من انحدروا عن قيس عيلان فقد انتشروا شرقى السراة وعمَّروا وسط الجزيرة وشمالها فيما عدا عوالى نجد ، أى الأرض المرتفعة المؤدية إلى قلبها ، فهذه كانت بلاد كندة وبعض النسَّابين يقولون : إنهم كانوا من جملة الزاحفين من الجنوب وإن مواطنهم الأولى كانت عند حضرموت عند موضع يسمى كِندة ، وهذا فرض مقبول ، ولكن من الممكن كذلك أن يكونوا شماليين أصلاً بدلالات التاريخ ونوع الحضارة وانتشار النصرانية فيهم ، ربما من بلاد لخم ، فليس لدينا بينة من التاريخ تؤيد يمنية كِندة الشمالية تأييداً قاطعاً ، أما أن نستند فى ذلك إلى وجود موضع فى حضرموت يسمى كِندة ، فلا يمكن اعتباره حقيقة تاريخية مقطوعاً بها ، وقد لا يكون أصل اسم الموضوع الموجود فى حضرموت «كِندة» أصلاً بل شيئاً قريباً منه فحرَّف رسمه النسابون والمؤرخون . وسنعود إلى قيس عيلان وندرسها بالقدر الذى يعيننا على تتبع تاريخ قريش .

ولكننا لا نكتفى هنا بالإشارة إلى ما يقال : من أن قيس عيلان ليس اسم الجماعة ، وإنما نشير إلى قول ابن حزم فى الجمهرة تحت عنوان : هؤلاء بنو قيس بن عيلان بن مضر : «وقال قوم : إنما هو إلياس بن مضر ، وأنه ولد قيساً ودهمان ، وهم أهل بيت فى قيس والأصح أنه قيس بن مضر وأن عيلان عبد حَضَنَه فنُسِب قيس إليه فولد قيسٌ خَصفة ، وفيه العدد ، وسعد وفيه البيت ، وعمرو »[2].

(١) ابن عبد البر النمرى ، الإنباه على قبائل الرواة ، طبعة مكتبة المعارف الطائف (بدون تاريخ) ٦٨ - ٦٩ .
(٢) ابن حزم ، الجمهرة ص ٢٤٣ .

فهذه عبارة تثير أكثر من مشكلة ولا يمكن فهمها وتفسيرها بعض الشيء إلا على الوجه الذى ذكرناه . فهنا نرى أن قيس عيلان اسم عام أُطلق على فريقين من ولد مضر ، وهم إما أن يكونوا قد نشأوا متفرعين عن مضر بن نزار أو يكونوا أبناء إلياس ابن مضر بن نزار ، وهم على أى الحالين ليسوا جماعة واحدة ، بل جماعتان إحداهما تسمى قيس ، والثانية تسمى دهمان ، ثم تحالفتا أو انضمتا فى حلف قَبَلى واحد سمى قيس عيلان ، وقيس عيلان هذا ليس اسم قبيل بل اسم الحلف أو جماع نسب الحِلف ، واسم الحلف أتى من اسم عبد حضن قيساً ، وعلى هذا فيكون عيلان هو اسم العبد الحاضن ، وهذا غير مقبول على علاّته ، لأن الغالب أن اسم عيلان جاء من اسم المناطق التى انتشر فيها حلف قيس وهى فيما حسب المتأخرون من الرواة بلاد الجوع على اعتبار أن عيلان مشتق من العَيْلَة أو الجوع بدليل النص التالى ، وهو أيضاً عند ابن حزم : «وقال حُصين بن المنذر بن الحارث بن وعلة بِحَضْرة وجوه العرب وقتيبة بن مسلم فى حديث طويل : لو رآها قيس لَسُمِّى قيس شَبْعان ولم يسم قيس عيلان »[1] .

والغالب أن عيلان هذا اسم الموضع الذى تحالفوا عنده أو اسم الشارة التى اتخذوها للحِلف ولا علاقة لها بالشبع أو الجوع . وعند أبى العباس المبرد نص يدلنا على مقدار الشك فى صحة الأنساب والأسماء ، يقول : «وأما قيس فهو الناس - بالنون - بن مضر ويقال : إن عيلان كان عبداً لمضر حضن ابنه الناس فنسب إليه قيس فقيل : قيس بن عيلان بن مضر» [2] وإذن : فقيس هو فى نفس الوقت «الناس» ونحن لا نعرف كيف يُقرأ لفظ الناس هذا : هل هو إلْنَاس قياساً على إلياس أو النّاس ، وعلى أى حال فيمكن القول بأن الناس هذا - أياً كان نطقه - هو اسم القبيلة التى صنعت التجمع أو الحلف ، ويكون قيس عيلان هو اسم جماع النسب الذى أطلق على الحلف.

فَرع إلياس بن مُضر : كِنَانَة - أول ظهُور قريش :

عند النسَّابة أن كنانة هو ابن خزيمة بن عامر بن إلياس بن مضر ، وليس لدينا ما

(١) ابن حزم ، الجمهرة ١٠.

(٢) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، نسب عدنان وقحطان ، طبعة مكتبة المعارف - الطائف (بدون تاريخ) ص ٢٠.

يمنع من قبول هذا التسلسل فى النسب لأن الأصح أن يقال : إن كنانة قبيلة انحدرت عن قبيلة أخرى تفرعت عن قبيلة تسمى مدركة أو عمرو ، وأن هذه نشأت عن بنى إلياس بن مضر . وقد رأينا أن خندف أم إلياس قضاعية وكذلك كانت أم خزيمة فهى سلمى بنت أسلُم بن إلحاف بن قضاعة . وليس عندنا تفسير للفظ خزيمة ولكنه فى الغالب اسم تجمع قبلى ، أما اسم القبيلة التى صنعت الحلف فهو أسد لأن خزيمة تكنى أبا أسد . وبين خزيمة وقصى - وهو أول رجل نعرفه بعينه وصفته وعمله فى شجرة النسب - تسعة آباء - فإذا نحن جرينا على ما يقوله النسابة من أن شجرة النسب شجرة آباء فهذه تسعة أجيال تحتاج إلى ثلاثمائة سنة على حساب من يقولون إن الجيل ثلث قرن ، وثلاثمائة وستون سنة لمن يقولون إن الجيل ربع قرن ، وهذا أمد طويل يصعب معه تذكُّر الأسماء فضلاً عن صفاتها ، ولكن نسبة خُزيمة إلى أم قضاعة تميل بنا إلى القول بأن قبيلة خزيمة نشأت عن حلف من فرع من إلياس بن مضر وفرع من قضاعة . وقضاعة كانت أثناء هجرة الإسماعيلية قد بدأت تتفكك وتنتشر وبدأت بناتُها من الأحلاف القبلية التى نشأت عليها تظهر ، فظهرت كلب بن وبرة فى الشام وجُهينة وَبِلِىّ وغيرها فى شمال الحجاز . وقد سلك هذا القبيل من العدنانية المضرية طريقاً يمر بأرض انتشرت فيها القبائل القضاعية ، ومن هنا فإنه من الطبيعى أن نجد القبائل الواردة فى شجرة النسب ذات طابع قضاعى واضح ، وفى هذه الحالة تكون كنية أبى أسد التى تُطلق على خُزيمة خطوة نحو تعرُّب هذا القبيل من المستعربة.

وعندما نصل إلى كنانة نجد الأثر الكبير لصنعة النسابة فى تصوير شجرة النسب النبوى ، فكنانة عند النسابين رجل واضح العين ، ففى كتاب « الخبر عن البشر » للمقريزى ، وفى « شرح السيرة » للخشنى أن «أبا عمرو العدوانى - والمراد ذا الأصبع - قال لابنه فى وصيته : يا بُنى ! أدركتُ كنانة بن خزيمة ، وكان شيخاً مُسِناً عظيم القدر ، وكانت العرب تحج إليه لعلمه فقال - يريد كنانة - إنه قد آن خروج نبى بمكة يدعى أحمد يدعو إلى الله وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتبعوه تزدادوا شرفاً إلى شرفكم ، أو عِزًّا إلى عِزِّكُم ، وألا تتعدوا ما جاء به فهو الحق[1]» وإنه

(١) المقريزى ، الخبر عن البشر ، مخطوط دار الكتب المصرية جـ ٣/ ٣ قسم أول ، وشرح السيرة للخشنى ١/ ٣.

لعجيب أن يكون بين كنانة ورسول الله تسعة أجداد ، ثم يقول ذو الأصبع العدوانى هذا أنه رأى كنانة وأن كنانة قال : إنه آن خروج نبىّ بمكة ، فكيف يقول : إنه آن ظهوره وبينه وبينه تسعة أجيال ، أى : ثلاثمائة سنة أو أربعمائة ؟ وكيف يتنبأ بظهوره فى مكة ومكة كانت إذ ذاك قرية لم يسمع بها إلا قليل من العرب فضلاً عن القادمين من خارجها ! وهـذا كلام يقوله المقريزى وهـو معدود بين ذوى النظر والحس التاريخى بين المؤرخين . وأقرب إلى المنطق أن نقول : إن كنانة كانت قبيلة ، أو اسم تجمع ، أو حلف قبلى.

وكنانة كانت قبيلة طويلة العمر ، وقد عُمِّرت طويلاً بفضل فرعين من فروعها هما النَّضر وعبد مناة . والنضر حلقة هامة من حلقات شجرة نسب عدنان ، وأول ما نلقى كنانة نلقاها قرب مكة إلى غربها ، ولا نعلم كيف وصلت إلى هناك ولكننا نستنتج من مصاهراتها ومصاهرات أمها خزيمة أنها مرت فى هجرتها فى بلاد قضاعة وفروعها التى كانت منازلها تتصل من جنوبى الشام إلى الحجاز : جهينة وبلى وأسلُم وبَهْراء وخشين وسعد هذيم وما إليها من فروع قضاعة التى امتدت جنوباً بغرب ، ويبدو أن منازل القضاعيين لم تتجاوز منطقة مكة جنوباً ، لأننا بعد ذلك ندخل فى بلاد خزاعة ، وبقايا من جُرْهم من بقايا العاربة ، واستقرت كنانة بعد طول تجوال غربى مكة .

ولا ينبغى أن يصرفنا تتبع أصول قريش عن حقيقة هامة تغيب عن القدامى فى تتبعهم لخط النسب القرشى ، وهى أنه فى نفس الوقت الذى كانت فروع العدنانية الأخرى تنتقل فيه وهى فى طريقها الذى نجدها فيه عشية البعثة المحمدية ، كانت جموعها تنتقل وتتجمع وتتفرق على النحو الذى وصفناه حتى تستقر كلّ منها فى موضعها الذى سنجدها فيه أوائل القرن الخامس الميلادى ، وسنحاول أن نقدر لتاريخ استقرار كنانة فى الحجاز تاريخاً تقريبياً جداً عند كلامنا على قصى ، وتقدير التاريخ هذا أساسى فى بحثنا هذا ، فلا تأريخ بدون حساب زمنى ، ولو تقريبى ، ونحن إذا قدَّرنا أن بين كنانة وقصى ثمانية أجداد أو تسعة فمن الممكن جداً أن يكون سير كنانة فى الحجاز واستقرارها قرب مكة كان فى القرن المسيحى الثانى ، وفى ذلك

الوقت ربما لم يكن اسم مكة بتلك الصورة قد ظهر ، ربما كان اسمها إذ ذاك هو الذى أثبته بطليموس: ماكورابا أومَكُرابا أو مَقُرْبة وأن الموضع المحدد الذى كان موجودًا إذ ذاك هو «بَكَّة» وهو اسم الموضع الذى رفع فيه إبراهيم عليه السلام قواعد البيت . والبيت أقدم من ذلك بكثير ولكن إبراهيم هو الذى رفع قواعده أى جدَّد بناءه على قول المفسرين . كانت هناك بَكّة وحولها محلة صغيرة هى ماكورابا ، وكانت تنزل بها بقايا من جُرهم من قبائل العرب العاربة ، ويسميها نسابة العرب جُرْهم الثانية ، لأن جُرْهم الأولى فى عُرْفهم من البائدة.

وفى موطنها الذى استقرت فيه استمرت كنانة تتجمع ، ثم أخذت تتفرق وتحل محلها وحدات قبلية جديدة يذكر منها النسابة ستاً ، ولكن أكبرها وأهمها النَّضْر ، وعبد مناة . ولابد أن نلاحظ هنا أن كل قبيلة تتفرق يبقى اسمها أمداً طويلاً أو قصيراً على قبيل من الناس ، وقد يختفى الاسم بعد ذلك ، فليس لدينا على خريطة النسب قبيلة تسمى كنانة ، لا ولا نجد اسم عبد مناة ، بل الذى لدينا فروع كثيرة منها ، أهمها من الناحية التاريخية بكر وكعب. وهذان الفرعان من بنى عبد مناة هما اللذان نصادفهما أيام قصى وما بعدها.

ونتتبع فرع النضر أى قبيلة النضر فى طريقنا إلى قريش ، فنجد أن المتأخرين من مؤرخينا يقولون لنا : إنه اسم رجل، بل يزعم أبو ذر الخشنى فى شرحه للسيرة[1] أنه يعرف لماذا سُمِّى النضر بهذا الاسم ، فهو يقول : «النضر الذهب الأحمر ، وهو النَّضار سُمِّى النضر بذلك لوضاءته وإشراق وجهه» وهذا انعكاس من أضواء النبوة وإشراقها على أجداده ﷺ . وهنا يعود النسابة إلى التسمية المزدوجة لنفس العَلَم فيقولون إن اسم النضر قيس ، وعلى هذا وتمشياً مع منهجنا يكون النضر هو اسم رئيس الجماعة وقيس هو اسم التجمع لها . ويقول النسابة : إن أمه برَّة بنت مُرّ بن أد ابن طابخة بن إلياس بن مضر ، وهى أخت تميم بن أد. وهذه أول مرة نسمع فيها عن صهر لخط النسب بهذا البُعد ، فإن جماعة طابخة التى ترأسها عمرو بن إلياس بن مضر قد اختفت عنا من زمن طويل ، وأخذت طريقاً آخر انتهى بها إلى مواضعها

(١) شرح السيرة لأبى ذر الخشنى ١/ ٣.

المعروفة جنوب وجنوب شرقى نجد فيما يعرف بأعالى نجد ، وهناك اندرجت بحكم ظروف البيئة - كما سنرى - فى جملة الأعراب أو الأعاريب ، ويقال : إن مواطن تميم امتدت فى وقت من الأوقات حتى شملت البحرين.

مشاكل تتعلق بأصل قُريش :

وهنا تبدأ المشكلة الكبرى : مشكلة قريش .

فإن بعض نسَّابتنا يقولون لنا : إن النضر هو قريش ، وبعضهم الآخر يقول : إن ابنه فهْر هو قريش ، وهم أنفسهم فى حيرة من أمرهم بشأن النضر وفهر وقريش جميعاً والسبب واضح ، وهو أننا كلما اقتربنا من زمن النبى ﷺ خرجنا من ضباب التاريخ إلى نور الحقيقة ، وتحت النور ينقشع الضباب ويجد المؤرخون القدامى أنفسهم فى حرج ، فهم لا يستطيعون أن يقولوا إنهم لا يعرفون حقيقة أمر هام كهذا من أمور النسب النبوى فيمضون يتلمسون المادة فى القصص الشعبى ، إذ لابد أن هذه الأسماء كلها ظهرت أولاً على ألسنة القصاص ، فلم يكن عند العرب قبل قُصى خاصة سجلات أو دفاتر أو حتى نقوش، وفى هذه الحالة لابد أن ننبه إلى أن كل ما نحكيه فى هذا الصدد إنما هو ما يستطيع المؤرخ العثور عليه من معالم تمكنه من تتبع الطريق الذى يختفى فى ليل التاريخ ، وهو يتتبعه دون أن يقرر فيه شيئاً بصورة حاسمة . وقد حكينا ما حكينا إلى الآن مع الحذر الذى لا مفر منه ، وعندما نخطو على أرض صلبة يطمئن لها المؤرخ مع قصى بن كلاب سنغادر درجة من درجات هذا الشك المتعب الذى سِرْنا فيه إلى الآن.

مع النضر إذن يظهر اسم قريش أول ما يظهر . فقيس كما غلب على ظننا قَبِيل أو تجمع قبلى ، والنضر اسم رئيسه الذى رأس ذلك التجمع.

ويؤكد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد أن النضر هو قريش ويقول : «فمن قبائل خندف قريش، واسمه النضر بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. وتفرعت قبائل قريش من بنى فهر بن مالك، فيقال لهم بنو فهر ، قال الحُطيئة :

وإن الذى أعطيتهم أو مَنعْتَهم لكالتمر أو أحلى لحلف بنى فهر[1]

(١) المبرد . نسب عدنان وقحطان ، ص ٢٢ .

وفى هذا الخبر نقرأ مرتين عبارة «بنى فهر» مما يدل على أن فهراً اسم قبيلة أو تجمع قبلى .

وعند ابن عبد البر نقرأ: « النضر بن كنانة كان يقال له القرشى»، وفى نفس الصفحة نقرأ «كان النضر بن كنانة يسمى القرشى» [1] ووَصْف وتسمية النضر بن كنانة بالقرشى يدل على أن الوصف كان موجوداً من قبل أو يكون قد وُجِد فى أيامه، وفى هذه الحالة يكون حلف قريش قد تكون من بعض فروع كنانة أيام النضر أو قبله بقليل.

ويقول ابن عبد البر : «وقد اخْتُلِف فى قريش ، فقال أكثر الناس : كل من كان من ولد النضر بن كنانة فهو قرشى ، وحجتهم فى ذلك حديث الأشعث بن قيس الكندى، قال : قَدِمت على رسول الله ﷺ فى وفد كِندة فقلت : ألستم مِنَّا يا رسول الله؟ قال: لا. نحن بنو النضر بن كنانة . لا نقفوا أمَّنَا ، ولا ننتفى من أبينا »[2].

وعندنا على أى حال أربعة أقوال فى أول من سمى بقريش من ولد عدنان.

الأول : يقول إن النضر أول من لقب بالقرشى، فهو على هذا قريش. وهذا القول يكرره ابن عبد البر مرتين إحداهما بسند من الواقدى ورواته: النضر بن كنانة كان يقال له القرشى [3].

والثانى : ينسب إلى المصعب الزبيرى ويكاد أن يكون أصل آراء معظم أصولنا وهو يقول : «كل من لم ينتسب إلى فهر فهو ليس بقرشى . وقال على بن كيسان : فهر هو أبو قريش ، ومن لم يكن من ولد فهر فهو ليس من قريش وهذا أصح الآراء فى النسبة لا فى المعنى الذى من أجله سُمِّيَت قريشٌ قريشاً . والدليل على صحة هذا القول أنه لا يُعلم اليوم قرشى فى شىء من كُتُب أهل النسب ينتسب إلى أب فوق فهر، دون لقاء فهر ، ولذلك قال مصعب وابن كيسان والزبير بن بكار ، وهم أعلم النُّساب بهذا الشأن وأوفق من ينسب علم ذلك إليه - أن فهر بن مالك جُماع قريش

(١) ابن عبد البر ، الإنباه ، ص ٧٦ .
(٢) ابن عبد البر ، الإنباه ، ص٧٥ .
(٣) ابن عبد البر ، ص ٧٦ .

كلها بأسرها . وذكر أبو عبد الله أحمد بن محمد العدوى فى كتابه فى نسب قريش قال : جُماع قريش كلها فهر والحارث ابنا مالك بن النضر بن كنانة . وزعم أن الصلت بن النضر بن كنانة ليس من انتسب إليه بقرشى.

وقال على بن كيسان : وَلد النضرُ بن كنانة مالكاً والصلتَ ويخلدا ، أمهم امرأة من جُرْهم .

وقال ابن الكلبى : ولد كنانةُ بن خزيمة النضرَ ، وهم قريش ، ثم ذكر سائر بنى كنانة أكثر من عشرة[1].

وأصل هذا الكلام عند المصعب الزبيرى . قال : وقد قالوا : اسم فهر بن مالك قريش ، ومن لم يلد فهراً فليس من قريش ، فولد مالك بن النضر فهراً وهو قريش وأمُّهُ من جُرهم[2].

والثالث : ورد فى كتاب « الإنباه » لابن عبد البر ، وهو يقول : إن قصى بن كلاب هو أول من سمى بقريش ، وإليك الفقرات التى تهمنا من كلامه . وقال آخرون : قصى كان يقال له القرشى . وذكر الواقدى أن عبد الملك بن مروان سأل محمد بن جبير بن مُطعم : لِمَ سُمِّيت قريش قريشاً ؟ فقال : لتجمُّعها فى الحرم بعد تفرقها . فقال عبد الملك : ما سمعت بهذا ، ولكن سمعت أن قصياً يقال له القرشى ، ولم تُسَمَّ قريش قبله . وذكر الواقدى أيضاً بإسناد له عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : لما نزل قصى الحرم وغلب عليه فعل أفعالاً جميلة ، فقيل له : القرشى . فهو أول من سمّى بذلك[3].

والرابع : تردده معظم الأصول ، وإليك نص المصعب الزبيرى فيه : فأما يخلد (ابن النضر بن كنانة وهو أخو مالك بن النضر فهو عم فهر بن مالك بن النضر) فهم فى بنى عمرو بن الحارث بن مالك بن كنانة ، ومنهم قريش بن بدر بن يخلد بن النضر، وكان دليلَ بنى مالك فى تجارتهم ، فكان يقال : قدمت عير قريش . فسميت قريش بذلك[4].

---

(١) ابن عبد البر ، الإنباه ص ٧٥ .
(٢) المصعب الزبيرى : نسب قريش ١٢ .
(٣) ابن عبد البر ، الإنباه ص ٧٦ .
(٤) المصعب الزبيرى : نسب قريش ص ١٢ .

بدايات ظهور قُريش وَانفصَالها عَن كِنانَة

مِن بَنى إلياس بن مُضَر

وهذا الاختلاف كله يرجع إلى أن كنانة القبيلة بعد استقرارها فى الحجاز بدأت تتفرق وتتفكك أمام ضغط القبائل التى وجدتها فى منازلها الجديدة وأهمها خزاعة ، وخرجت من أبنائها فروع كثيرة أهمها النضر وعبد مناة ، وبنو النضر أخذوا يتحولون إلى قبيلة باسم قريش ، وهذا التحول بدأ يظهر فى فرع من فروع النضر هو فهر بن مالك ، واستمر التحول والتجمع حول فرع من فروع فهر هو عامر ثم فرع آخر هو لؤى بن غالب بن فهر وانقسمت القبيلة التى كانت فى دور التكوين إلى قسمين رئيسيين : لؤى بن غالب وعامر بن غالب ، ومن هذين القبيلين نشأت نواة قريش ، ولهذا فإن هذين الفرعين من فهر يقال لهما البطاح ، ثم استمرت عملية التجمع وبناء القبيلة أيام مُرَة بن كعب وكلاب بن مرة ، وجاء قصى ، وهو أول رئيس واضح الشخصية التاريخية من رؤساء قريش ، فجمع ما استطاع جمعه من فروع قريش ، وخاصة فرعا كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، ودعاهم إلى خوض معركة مع خُزاعة وانتزاع مكة منهم ، وتجمعوا حوله ودخلوا مكة واستقروا فيها ، وكانت نواة الداخلين كعباً أو عامراً فرعى لؤى بن غالب فنزلوا البطاح أى قلب مكة ، ثم تلاحق بهما بنو فهر بن النضر بن مالك ، وهم بقية الفروع المنحدرة من النضر بن كنانة وهؤلاء الأخيرون ظلوا فى الغالب أعراباً حول مكة ، وأطلق عليهم اسم الفهريين ، وهم منسوبون إلى قريش .

أما قريش فكان اسم التجمع ، فربما كان موضعاً ، وربما كان اسم رمز لا نعرف كنهه ، وربما كان اسم حيوان أو شجرة أو أى شىء ، وربما كان أيضاً اسماً لمكان ، ولهذا فقد اختلط الأمر على رواتنا فقالوا : « إن قريشاً هو النضر أو هو فهر أو هو قصى . ويؤيد هذا قول محمد بن حبيب النسابة أن قريشاً ليس اسم أب ولا أم ولاحاضِن أو حاضنة ، وإنما هو جماع نسب » . وهذه هى حقيقة اسم قريش ويكون الكلام الكثير الذى نقرأه فى النصوص عن معنى قريش وعلى من أُطلق أول ما أُطلق

مجرد فروض أو محاولات للإجابة على سؤال ليس له مكان ، فليس هناك شخص اسمه قريش ، وإنما هناك قبيلة تسمى قريش .

وإذا رجعنا إلى الوراء قليلاً وجدنا النسابة يجعلون لكنانة أحد عشر ولداً منهم أربعة من أم واحدة هى بَرة أخت تميم بن مُر ، وستة من أم يمنية، وواحد من أم قضاعية ، وعلى رأس أبناء التميمية النضر الذى ينحدر منه القرشيون ، أما الستة أبناء اليمنية فلم يكن من بينهم واحد ذا شأن ، ولكن عبد مناة ابن القضاعية هو الذى كان صنو النضر ومنافسه ومنه انحدر بنو بكر وبنو كعب فرعا عبد مناة بن كنانة ، وقد ظلا يمثلان كنانة فى الحجاز فى وجه بنى النضر الذين أصبحوا قريشاً وسادوا أهل الحجاز .

وتفصيل أولئك الأبناء عند المصعب الزبيرى فى نسب قريش[1]. وفى كلامه عنهم يقول : « عن النضر بن كنانة وإخوانه أبناء التميمية وهم فرسان » ، وإذا جاز أن نستنتج شيئاً من هذه العبارة قلنا : إن فرع النضر وإخوته من أبناء كنانة - أو فروعها . بتعبير أصح - كانوا فرساناً ، ولهذا سادوا غيرهم وخاصة إخوتهم فى القضاعية ، وقضاعة كما رأينا من العرب العاربة ، وقد سادها المستعربة بقوة الخيل التى دخلوا بها وهذه الحقيقة الواحدة تؤيد ما قلناه من علاقة المستعربة بالخيل ، وتفسر لنا كيف أن فرع النضر ، ساد بقية فروع كنانة لأنه كان فرع فرسان .

والآن وقد وصلنا إلى قصى فلا بد أن نُلقى نظرة على خزاعة التى وجدها القرشيون الكنانيون تسود مكة وإقليمها ، وكان عليهم أن يخوضوا معركة معها لكى ينتزعوا مكة منهم ويتخذوها لهم قاعدة ومركز قوة .

خُزاعَة : أصُولُها وَمُورفولوجيتها :

فى دراستنا لتكوين قريش أو مُورْفُولُوجِيَّتها أخذنا فكرة عن تعقد تركيب القبائل العربية ، فنحن نحسب أننا نعرف كل شىء عن تركيب قريش لأنها رهط رسول الله ﷺ ، ولكننا ما كدنا نتفحص تركيبها عن قرب حتى تبينا أن فكرتنا التقليدية عن

(١) المصعب الزبيرى ، نسب قريش ص١٠ .

المورفولوجية الحقيقية لقريش يدخل فيها وَهْمٌ كبير ، وأن العوامل السياسية كان لها أثر بعيد فى عمل الصورة التى وصلتنا بها القبيلة عن طريق النسابة وأصحاب التاريخ.

وهذا الكلام ينطبق على معظم القبائل إن لم يكن جميعها ، وقد رأينا مثالاً معروفاً لنا جميعاً فى قضاعة واختلاف الآراء فى أصلها ونسبتها إلى اليمن أو معد . ولابد لنا فى هذه الدراسة من أن ندرس تكوين خُزاعة ، لأن خُزاعة وثيقة الصلة بقريش وببنى هاشم منها بصفة خاصة ، وهذه الصلة كانت تحالفاً قَبَلِياً قبل الإسلام ، أما بعد الإسلام فقد تزايدت أهمية خزاعة لأنها ظلت على ولائها لفرع بنى هاشم وحلفائهم، ووقفت معادية لمن عادى بنى هاشم والإسلام من قريش ، وكان لها ولأحلافها نتيجة لذلك دور عظيم فى تطور الأحداث فى العصر النبوى وبعده .

ولن ندخل هنا فى مناقشات طويلة حول تعقُّد تركيب خزاعة ، وإنما ما يهمنا هى الأسباب التى أدت إلى ذلك التعقد ، لأن شجرات الأنساب كما وصلتنا إنما هى صورة لأحداث وظروف سياسية أحاطت بالقبائل قبل الإسلام وبعده ، وكان لها أثر فى تشكيل هذه الصور فى شجرات أنساب سياسية وإثنوجرافية فى نفس الوقت .

والذى نستطيع قوله هو أن النواة الأولى لخزاعة يمنية ، فإن أصلها فيما يقول النسابة من جماعة غَسَّان اليمنية التى هاجرت من الجنوب ، وفى الطريق إلى الشمال اختارت بعض بطون غسان أن تنزل بين مكة والمدينة فى موضع غَدير الأشطاط شمال مكة ، وهذه المجموعة عُرفت باسم خزاعة ، وهى مجموعة البطون الأساسية فى تكوين القبيلة وهم بنو كعب وبنو مليح وبنو سعد وبنو عوف وبنو عدى ، وهم أبناء عامر بن لُحَى بن حارثة بن عامر . ولُحَى المذكور هنا يسمى أيضاً ربيعة .

وبعد أن استقرت هذه البطون الخمس فى موطنها الذى ذكرناه انضمت إليها - فيما يقول النسابة - ثلاثة بطون من بنى أفصى بن إلياس بن مضر وهى أسلم ومالك وملكان . وتلك هى البطون التى يقال إنها انخزعت أى انفصلت عن بنى إلياس بن مضر ، ولسنا على يقين من أن انخزع معناه انفصل [1] ، ولكن هكذا يقول الرواة .

---

(١) فى لسان العرب لابن منظور (مادة خزع) : « خزع عن أصحابه : تخلَّف عنهم فى مسيرهم . وانخزع الحبل : انقطع » .

أما بقية البطون التى تراها فى شجرة نسب خزاعة فيقال : إنها من أبناء خِندِف وخندف هى امرأة إلياس بن مضر فيما يقول النسابة وأبناؤها هم بنو إلياس بن مضر ويُسمَّون لهذا خندِف أو الخندفيون .

وعلى هذا ، فتكون النواة الأساسية من خزاعة يمنية أضيف إليها نواة ثانية من بطون قمعة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَد بن عدنان ، ثم نواة ثالثة من مضر أيضاً ولكن عن طريق خندف امرأة مضر . وخزاعة إذن قبيلة ثلاثية النواة .

وقد بيَّنا ذلك كله على شجرة النسب التى رسمناها لأنساب تلك القبيلة وذكرنا مرجعنا فى كل قول ، وسنرى فى سياق هذا التاريخ الأسباب السياسية التى جعلت النسَّابة يُدخلون هذا التعقيد كله على نسب خزاعة[1].

خُزاعَة وَقُرَيش :

لا نستطيع أن نستكمل تاريخ قريش دون أن نُلِمَّ بتاريخ خزاعة فى إيجاز ، فتاريخ قريش شديد الاتصال بتاريخ خزاعة والتأثر به قبل الإسلام وبعده . وهذه العلاقة الوثيقة بين قريش وخزاعة كان لها الأثر الكبير فى تكوين شكل شجرة نسب خزاعة ، لأن قصى بن كلاب عندما عادى خزاعة واجتهد فى انتزاع مكة منها أذاع القرشيون عن خزاعة أخباراً لا يرضى عنها الخزاعيون مثل قولهم إن خزاعياً وهو حُلَيِّل بن حُبْشية باع الكعبة من قصى بزقِّ خمر ، وبعد أن استقر قصى فى مكة عمل هو وابنه عبد مناف على استرضاء خزاعة واجتهد القرشيون فى ربط خزاعة إليهم ، ومن هنا

---

(١) ابن عبد البر : الإنباه ، ص ٩٨ .
وانظر عن خزاعة :
ابن هشام : سيرة رسول الله (القاهرة ١٩٣٣) ١/ ٧٨ .
البلاذرى ، أنساب الأشراف . الجزء الأول بتحقيق محمد حميد الله (القاهرة ١٩٥٩) ص ٣٤ .
الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (القاهرة ١٩٥٦) ٢/ ٤٤-٤٥ .
المصعب الزبيرى : نسب قريش (القاهرة ١٩٥٣) ص ٧-٨ و ١١ .
ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، بتحقيق عبد السلام هارون ، الفهرس .
القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب ، بتحقيق الإبيارى ص ٢٤٤ .
ابن الكلبى ، كتاب النسب الكبير ، الجزء الأول بتحقيق عبد الستار فراج ، الكويت (فى صفحات متفرقة) .
ابن دريد ، الاشتقاق ، بتحقيق عبد السلام هارون (١٩٥٨) ص ٤٦٨ .
الحازمى ، عجالة المبتدى بتحقيق عبد الله كنون (القاهرة ١٩٦٥) ص ٥٤ .
محمد بن حبيب النسابة : المنمق ، ٣٤٦- ٣٤٧ .
أما المراجع الخاصة بتاريخ خزاعة بعد الإسلام فسترد فيما بعد .

جاء ما يقوله ابن إسحاق والمصعب الزبيرى من أن خزاعة عدنانيون خندفيّون من أبناء مضر وامرأته خندف ، وهم على هذا فى جملة أبناء مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ومن هذا أيضاً ما يقال من أن خزاعة ينحدرون من أفصى بن عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر ، وهذا هو قول أبى عبيدة معمر بن المثنى ويتابعه فيه ابن حزم .

أما الخزاعيون فيرون أنفسهم من اليمن ، ويسوقون نسبهم من حارثة بن عمرو مزيقياء بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد . وابن الكلبى - وهو المسؤول الأول عن الشكل الهندسى الذى وصلت إلينا به أنساب العرب قبل الإسلام خاصة - ينكر أنه كان لقمعة وهو فى رأى النسابة عمير ابن مضر خندف - ابن يسمى ربيعة ، وأن ربيعة هذا هو لحىّ جد الخزاعيين ، وهو يقول : إن لُحيَّ بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء ابن حارثة الغطريف ، ويسوق بقية النسب إلى مازن بن الأزد .

والمتأمل فى هذا الاختلاف الشديد فى مساق نسب خزاعة يرى بوضوح أن النسابة وجدوا أنفسهم أمام جماعات من خزاعة تسوق نسبها إلى قمعة بن مضر وخندف بن إلياس بن مضر ، وجماعات أخرى من خزاعة تقول إنهم ينحدرون من النسب اليمنى الصرف أى : من حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف ، بينما تقول جماعة منهم إنهم ينحدرون من أفصى بن عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر.

وما دامت الأقوال كلها تتفق على أن جد خزاعة هو لُحى بن حارثة وأن لُحياً هذا اسمه عمرو وابنه المسمى بربيعة هو ربيعة بن عمرو فإننا نستطيع القول بأن لحى بن حارثة بن عمرو مزيقياء هو اسم جد الخزاعيين الذى انفصل بجماعة من الأزديين كانوا مهاجرين من اليمن مع جماعة هى التى سميت بجماعة غسان ، واستقرت هذه الجماعة - قرب مكة وهناك تحالفت مع فريقين من المضريين من فرع إلياس بن مضر ، جماعة تنحدر من أفصى بن عمرو بن قمعة ، وجماعة تنحدر من ربيعة بن قمعة بن مضر ، ومن هنا جاء القول بأن ربيعة بن قمعة هو نفسه لحى بن قمعة ، ومن هذه الأصول الثلاثة أو النوى الثلاث تكوَّن ذلك المجموع الكبير المسمى خزاعة .

وخزاعة هذا قد يكون اسم مكان أو جبل أو طوطم أو ماء أو شجرة . وقد سبق أن رأينا أن قريشاً نفسها تكونت من نواتين رئيسيتين إحداهما عدنانية ، والثانية قضاعية ، فهذه خزاعة قبيلة تتكون من ثلاث نويات .

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة ، فلنقص حكاية خزاعة كما يرويها النسابة على اختلاف بينهم فى مساق القصص فنقول : إن الجماعة اليمنية التى انفصلت عن غسان وانضمت إلى جماعات أخرى تحت اسم خزاعة استقرت إلى جوار مكة حيث كان السلطان لقبيل قديم جداً فى هذا الموضوع من العرب العاربة يسمى جُرْهم ، وجُرْهم هذه هى بقية من فريق من العرب البائدة حمل نفس الاسم ، ولهذا تسميها الروايات بجُرْهم الثانية.

وطلب آل لُحى من جُرْهم الثانية أن تأذن لهم فى الاستقرار إلى جوار مكة حتى يجدوا مرعى مناسباً ينتقلون إليه ، فرفضت جُرْهم ، ودارت حرب بين الحيين انتهت بانتصار لحى بن عمرو أو ربيعة بن عمرو ، وانضمت إليهم جماعات أخرى من العرب الذين كانوا تحت سلطان جُرْهم ، فنشأ جمع جديد هو الذى أخذ اسم خزاعة . وهناك رواية تقول : إنه لم تحدث حرب بين جُرْهم وتجمع لحى بن عمرو الذى أصبح يسمى فى صورته الجديدة باسم خزاعة وأن الذى حدث هو أن جرهم وخزاعة اتفقتا دون حرب على أن تتزوج فهيرة بنت الحارث بن مضاض الجرهمى من ربيعة بن عمرو (الذى هو لحى على قول النسابة) وابنهما عمرو بن ربيعة بن عمرو ورث سدانة الكعبة ، فهو عمرو بن ربيعة.

وهؤلاء الذين يقال لنا إنهم أبناء عمرو إنما هم أهم الوحدات القبلية التى تكوَّن منها التجمع الجديد تحت اسم خزاعة ، وكان تجمعهم عند مَرّ الظهران ، ولا معنى هنا للقول بأن خزاعة اسم اشتق من التخزع بمعنى الافتراق ، أى أن خزاعة قبيل انخزع عن جماعة غسان الأزديين . ودليلنا على ذلك قول ابن الكلبى: فولد عمرو بن ربيعة (يعنى عمرو بن لحى) كعباً ، بطن وعدياً بطن وعوفاً وسعداً ، فليس من المعقول أن ينجب رجل واحد أربعة رجال يصبح كل منهم بطناً وإنما الأقرب إلى المنطق التاريخى أن هذه البطون تجمعت وكوَّنت حلفاً يسمى خزاعة وهذا الحلف هو

الذى أخذ زعامة مكة وسدانة البيت من جرهم إما بالحرب أو سِلْماً عن طريق الصهر. وفى أثناء سلطان خزاعة فى مكة انفصلت قريش عن كنانة وظهرت فى صورة قبيل جديد متحالف مع خزاعة أو مع بنى كعب من خزاعة بتعبير أدق. وتقاربت لهجة الحيين حتى صارت لهجة عربية واحدة ، ولهذا يقول ابن عباس : نزل القرآن بلغة الكعبين: كعب بن لؤى وكعب بن عمرو بن لحى (من خزاعة). وذلك أن دارهم كانت واحدة.

الوَضع السّكانى فى الحجاز قبل البعثة :

ونتهى من هذا الباب بنظرة عامة على الوضع السكانى فى منطقة الحجاز عندما ظهر قصى وبدأ عمله الكبير فى تجميع قريش واحتلال مكة وانتزاع سدانة الكعبة فنقول : إن خزاعة كانت القبيلة القوية فى الميدان. وأقوى الخزاعيين كانوا بنى كعب ابن عمرو بن عامر بن لحى ، وهؤلاء كانت مساكنهم ممتدة شمالى مكة وفى الطريق منها إلى المدينة المنورة ، ثم كانت هناك بقايا كنانة وهى أم قريش وكانت منازلها ممتدة غربى مكة وربما إلى جنوبها وأقوى بطونها بنو عبد مناة بن كنانة .

وبقية الحجاز من المدينة فصاعداً حتى بلاد الشام كانت تسكنها بطون قضاعة التى تفرعت عنها وهاجرت من بلادها جنوباً بغرب إلى الحجاز أو إلى شبه جزيرة سيناء بعد تفرُّق قضاعة . هناك كانت تنزل جُهَينة وبَلِىّ وأسلَم وسعد هذيم ، وبهراء ومهرة وما إليها ، وقد مرت كنانة بمنازل هذه القبائل فى طريقها إلى منازلها الجديدة قرب مكة وتأثرت بها تأثراً شديداً . فاختلطت الأنساب وتوالت المصاهرات حتى ليمكننا القول بأن كنانة كانت بسبب المصاهرات قضاعية - من ناحية الأمهات - بقدر ما كانت عدنانية من حيث الصلب أو الصليبية ، والوحدات الرئيسية فى هذه الفروع القضاعية هى من الشمال إلى الجنوب : بنو القَين وبَلى وجُهينة وبهراء وعَذرة . وقد تركتُ جانباً الكلام عن عرب منطقة المدينة حتى يجىء موضعها من هذه الدراسة .

وإلى شمال الحجاز وما يليه شرقاً أقبلت جماعات يهودية فاستقرت فى مواضع عيون ماء كانت صغيرة ولكنها نمت مع الزمن بفضل من استقر فيها من اليهود وما قامت به من جهد فى الزراعة والصناعة . ومن هنا نشأت مراكز عمرانية فى خيبر وأم

القرى ثم فى فدك إلى الشمال الشرقى من خيبر فى مداخل نجد . وتقدم بعضها فاستقر فى سهل المدينة ، وهذه الجماعات ظلت على يهوديتها فلم تندرج فى غمار الوثنية التى كانت هى ديانة القبائل الإسماعيلية المستعربة ، أما القبائل القضاعية فقد بدأ بعضها يدخل المسيحية منذ القرن المسيحى الثانى.

وإلى شرقى جبال السراة امتدت جماعات الإسماعيلية من فرع قيس عيلان بن مضر وسنتحدث عن أهم جماعاتها ، ولكن يكفى أن نقول الآن إن الأراضى الرملية المعشبة الواقعة جنوبى صحراء النفود القاحلة امتدت فيها جماعات كبيرة من قيس عيلان أهمها غطفان (حول خيبر) وعَبْس وذبيان ولحيان ومحارب وأسد وهوازن (فى محاذاة المسافة من المدينة إلى مكة) ، وشرق هوازن وجنوبها امتدت بلاد تميم. وهذه القبائل كانت فروعاً من قيس عيلان وكلها ظلت أعراباً بسبب البيئة الصحراوية التى تميل إلى الجدب وقلة المطر فى منازلها ، بل إن معظم ما كان ينزل من المطر كان يفيض فى الرمال: هنا بلاد الأعراب أو أعاريب نجد فيما يُعرف عند كُتَّابنا باسم عوالى نجد أو العوالى .

وبعض أولئك الأعراب أو الأعاريب دخلوا الحجاز من منافذ الجبال مثل بنى سُليم بن منصور الذين استقروا عند معدن بنى سُليم ، وبنو هلال بن عامر بن صعصعة الذين جاوروا بنى سليم وانتشرت جماعات قوية منهم فى مواضع متباعدة من الصحراء ، ومن هؤلاء الأعاريب سعد بن بكر إلى الشرق من مكة ، وهم من هوازن.

وهؤلاء الأعاريب أنشأوا فيما بعد علاقات حلف وصهر مع بطون من قريش ممن لم يسكنوا بطن مكة مع قصى بن كلاب ، ولكنهم تأخروا وظلوا أعراباً أو أنصاف بدو يسكنون ظواهر مكة من بنى الحارث ومحارب من فروع فهر ، أما فرع غالب بن فهر ، فهم نواة قريش وهم الذين انحدر منهم قصى بن كلاب وفروع قريش البطاح وصلبهم كعب بن لؤى وعامر بن لؤى كما سنرى.

وبلاد هؤلاء الأعاريب كانت شديدة الفقر بطبيعتها ، وأهلها كانوا يعيشون فى فاقة وجوع دائمين تقريباً ، ولهذا فهم ينظرون بعين الطمع إلى جماعات المستقرين

أو أنصاف المستقرين التى كانت تعيش فى الحجاز من خيبر وفدك ووادى القرى حتى المدينة المنورة وفى تهامة فى إقليم مكة . وهذه الجماعات كانت من أصول شتى وتكوين سكانى يختلف من موضع لموضع ، فهم يهود مهاجرة من الشمال فى منطقة خيبر وما يوازيها ، وهى المنطقة التى تتيسر فيها الخيرات ومادة الحجاز ، فقد كانت خيبر تسمى ريف الحجاز ، وإلى هذه الجماعات اليهودية انضمت جماعات عربية قليلة وتهودت أم لم تتهود ، وهى قضاعية ، فى المساحات الواقعة بين جنوب الشام والمدينة ، ويمنية الأصول كما نجد فى الأوس والخزرج أصحاب المدينة ، وهم لم ينفردوا بها بل نزلت قبلهم ومعهم جماعات من قضاعة وعذرة وغفار ويهود ، ثم جماعة خزاعة المتنوعة الأصل، وقاعدتها عند مَرِّ الظهران فى حين أن ينبع كانت أكبر مراكز الجهنيين . ثم جماعة قريش ومن استقر معها فى مكة من قضاعة وعذرة وخزاعة وبقايا جُرْهم . وحول مكة كانت منازل كنانة وخاصة بنى عبد مناف منها ، وإذا سرنا إلى الجنوب فى تهامة بدأنا نَلْقى طلائع القبائل اليمنية من حد بيشة ، وأول من نلقى من تلك القبائل فى ذلك العصر خثعم .

وإلى الجنوب الشرقى من مكة نجد الطائف وهى منزل قبيلة ثقيف وأحلافها ، وهى قبيلة مستقرة وإن لم تفقد خصائص البداوة ، وهى قبيلة قيسية يرتبط رجالها بالمكيين أشد الارتباط ، وثقيف كانوا أهل زرع وضرع وزروع وأشجار وفواكه ونخل وكروم ، وكانوا يتحصنون فى مدينتهم الطائف على جبل وج ، وهذا الجبل كان حصنهم وملاذهم . وقبل الإسلام لا نسمع كثيراً عن ثقيف ولكن أمرها ظهر بفضل الإسلام الذى قاومته طويلاً ، فلما دخلت فيه بدأت مواهب رجالها تظهر .

والخط الفاصل بين الحجاز وتهامة يمر شمال مكة بقليل ، والمتأمل لأحوال هذا الجزء من الجزيرة خلال القرن الذى سبق البعثة المحمدية - وهو القرن الذى تم فيه بناء قريش وبلغت أوج قوتها وانتظامها - يشعر أن الحجاز وتهامة معاً كانا عامرين بالسكان وإن لم تكن هناك كثافة سكانية ، ولكننا نشعر أن كل موضع هناك مسكون وأن القبائل شديدة الإحساس بما يجرى حولها ، وسنرى بعد أن ندخل فى العصر النبوى أنه لم يكن من الممكن أن يتحرك إنسان أو قبيل فى أى بقعة من الحجاز وتهامة

إلا أحست به قبائل الموضع ، والأخبار تنتقل فى سرعة تستلفت النظر وكأنما أرصدت هذه القبائل ناساً يرقبون الطريق ويتحسسون الأخبار ويطيرونها.

ويشعر الإنسان كذلك أن الاستقرار والأمن سائدان بصفة عامة ، وذلك بفضل النظام الذى وضعته قريش وسنتحدث عنه ، وإذا قارنا أحوال الحجاز وتهامة بأحوال بقية الجزيرة خلال الجاهلية الثانية أحسسنا أن المستوى الحضارى أرفع مما فى غيره من نواحى الجزيرة . وستزداد هذه الحقيقة اتضاحاً كلما سرنا فى هذا البحث ، وفيما عدا تسللات فروع صغيرة من قيس عيلان وأعاريب نجد من أمثال أسد ومحارب والهون والديش والقارة نجد أن الوضع الأمنى يشبه ما كان عليه الحال فى بلاد الدول القائمة ، بل هناك مناطق كانت غاية فى الأمن مثل منازل عذرة وهذيل شمالى مكة ، ولا غرابة والحالة هذه أن نجد أن تلك القبائل قالت أعذب الشعر العربى وأرقّه .

* * *